٥٩

مجلة
روايات أحلام

دمّ الوَردة

مجلة روايات أحلام

دم الوردة

أحبته مورينا بكل جنون أعوامها الثمانية عشرة فطار قلبها مرفرفاً في سماء الأحلام لكن سهام الشك أصابت هذا القلب فهوى إلى أرض الواقع مكسور الجناح.

صدّق مادوك منذ سنتين أكاذيب أخته كارمن فتخلى عن مورينا متهماً إياها بالخيانة والاستهتار.

ولكنه الآن عاد يريد الانتقام لكرامته ولو عن طريق الزواج بمورينا. واكتشفت مورينا أن اتهامات مادوك لم تجعلها منيعة ضده، فهل تستطيع أن تجعله يصدّق أنها بريئة؟ أو يصدّق على الأقل أنها تحبه؟

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ١٠٠ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ١٠٠ ف.	تونس ٥٠٠ م.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٦ ر.	عمان ١٠٠ ب.	العراق

١ ـ سهم الذكريات

كان عزف الفرقة الموسيقية رائعاً، وكذلك كان حال الجو في النادي الريفي على أحد شواطىء بورتوريكو الخضراء الاستوائية. ولأن مورينا لم تكن تتوقع أن تتمتع بسهرتها، فقد دهشت لإحساسها بالمرح. لم تكن قد رقصت منذ سنتين، منذ أن رحل مادوك، لكنها ترفض أن تفسد هذه الأمسية بالتفكير فيه.. لقد أفسد الكثير من لحظات السعادة بفرضه نفسه على ذاكرتها، وقد حان الوقت لتتعلم نسيانه فتبدأ حياتها من جديد!

ضحكت حينما سألها الشاب الذي ترافصه عما إذا كانت تحس بالعطش، وهزت رأسها قائلة إنها لن ترفض كوباً من الليموناضة الباردة. فضحك دون، وأغلت مورينا على مضض من بين ذراعيه الفتيتين وقال بسرعة:

ـ انتظري هنا، سأرى ما أجده.

راقبته ببعد بغير اهتمام. كان في العشرين من عمره، في مثل سنها تماماً. شاب لطيف يعمل في أحد الفنادق العديدة المنتشرة على ساحل الجزيرة، التقته منذ ساعة فقط حين تمَّ تعارفهما عن طريق صديقتها التي أتت برفقتها، باميلا فيفر.. تعجبت مورينا لماذا لم يخفق قلبها له، ثم التفتت فالتقى نظرها، وبشكل دراماتيكي، بنظرة الرجل الوحيد الذي دفع يوماً قلبها إلى الخفقان

سرعان ما امتدت الصدمة إلى سائر أنحاء جسدها حتى غدا كل ما حولها أسود. للوهلة الأولى خالت نفسها مخطئة، فرفرفت عينيها ونظرت ثانية.. ولكنه مادوك... ابيضّ وجهها من الشحوب، وتسمرت عيناها في عينيه، لكنها لم تشاهد فيهما غير السخرية.. كان رجل آخر يكلمه ويجبره على النظر بعيداً. ولكنها كانت قد رأت قبل أن يشيح وجهه ازدراءها الذي ارتسم على قسمات وجهه القاسية.

مادوك لامب... اسم دوّى في رأسها دوياً شديداً حتى أحست بالمياه.. من المفترض أن يكون في إنكلترا.. فلماذا عاد؟ ربما ليتفقد مزارعه.. غير أنها لم تكن تتوقع رؤيته مرة أخرى وعندما رأته الآن تذكرت قسوته التي شهدتها فيه في المرة الأخيرة التي التقيا فيها فارتجفت.

سمعت من بعيد باميلا تسأل عما بها «أنت شاحبة جداً مورينا». صوتها القلق المتحرّ حطم الغشوة التي غلفتها والإثارة في صوتها أجبرتها على التماسك:

- أنا بخير باميلا.. حقاً.

- أنت واثقة؟ ليتني أصدقك، وكأنك تلقيت صدمة من نوع ما.

- صدقيني... أنا بخير.

لاحظت باميلا يدي مورينا المشدودتين، لكنها كبحت بعضاً من قلقها وقالت مترددة:

- طلب مني ريتشارد مرافقته.. فهل ستكونين على ما يرام حتى أعود؟

أكدت لها مورينا رغم ألمها وضيق تنفسها:

- طبعاً!

- أين ذهب ذاك الصبي دون... هل هو السبب؟ هل كدّرك؟

- لا.. لا! لقد ذهب ليحضر شراباً، ولكنني أعتقد أن على المقصف ازدحاماً شديداً، أظنني عائدة إلى المنزل حالاً.

- إذن ثمة خطب ما؟

- رأسي يؤلمني ليس إلا. أتمانعين باميلا؟

- لا، لا أمانع إن كنت تشعرين حقاً بالألم، علماً أنني أفضّل أن تبقي.. قد تشعرين بالتحسن بعد قليل إن جلست بهدوء.. أنت في العشرين من عمرك مورينا، وعليك التمتع بحياتك.

تمنت ألا تنظر ثانية إلى مادوك:

- كنت أتمتع.

قطبت باميلا بريبة:

- صحيح؟ هذا ما ظننته. وإذا لم تتمتعي فلا يعود ذلك إلى الشباب الذين يحومون حولك!

رسمت مورينا ابتسامة على وجهها:

- ريتشارد، ألن تبعدها؟ إنها تثير أعصابي!

ضحك ريتشارد:

- وأعصابي أيضاً.

نظرت باميلا إليه زاجرة، وردت على مورينا:

- إذا قررت الرحيل، وأرجو العكس، يجب أن تسمحي لتيري باصطحابك، فمنزلك أبعد من أن تتوجهي إليه سيراً على الأقدام علماً أنني لا أستبعد عنك ذلك.

- لا! اطمئني بالاً، لن أذهب سيراً، وإن شاهدتِ دون فاعتذري منه نيابة عني.

انتظرت مورينا لحظات حتى تمكن ريتشارد من إبعاد باميلا فتساءلت بينها وبين نفسها عما فعلت لتستحق صديقة مثلها..

صحيح أنها ليست صديقة بما للكلمة من معنى، فهي تعرفت إليها حين أخذت باميلا تشتري منها ما تلونه من صدف وقطع فخار صغيرة للسوّاح الذين أعجبوا بما ترسمه، وقد كان هذا المال مفيداً للغاية فلولاه لتضورت وأباها جوعاً.

ارتفعت مورينا على عقبيها تطلب مغادرة الغرفة المكتظة.. لكن قبل أن تخطو بضعة أمتار تناهى إليها صوت عميق:

- هل لي بهذه الرقصة، أرجوك؟

كادت مورينا تقفز إجفالاً فأسرعت تبتعد ولكن يداً قاسية أمسكت بذراعها توقفها. كانت الأصابع التي أمسكتها فولاذية. لم يكن من الضروري أن تتطلع لتعرف مادوك لامب، ومع ذلك عجزت عن منع نظرها عن الارتفاع إليه... نظر إليها بابتسامة لم تكد تبلغ عينيه:

- مرحباً مورينا.. مضى زمن طويل.

- أجل.

ردها متوتر، واهتياجها واضح، مع أنها حاولت جاهدة ألا تُظهر عدم الاكتراث.. كانت حتى الآن تتمنى لو يبقى بعيداً عنها، إنما ربما ظمأه إلى الانتقام لم يرتوِ بعد. قال لها باختصار:

- فلنرقص.

كانت غير قادرة على تحمل مجرد التفكير بأن تكون بين ذراعيه ثانية.

- أنا آسفة.. لا أستطيع، أنا في طريقي إلى المنزل.

نظر إليها ببرود، يمتزج بذلك الازدراء الذي طالما أظهر مرة التقيا فيها. قال بسخرية:

- وهل ثبّت فيه النار؟

ردت بجفاء:

- بل أحس بصداع.. والآن هلاّ عذرتني...

- لن أعذرك.. وإن لم ترافقيني أصطحبك إلى المنزل.

- أوه.. لا.. شكراً لك.. ثمة من سيقلني.

- دعك من هذا مورينا.. أنت تعلمين أن باميلا لن تعترض مهما كان من تعودين معه.

رمقت بحنق وغيظ شديدين:

- وكيف لي أن أقنعك أنني أفضل صحبة نفسي فقط؟

- لكنك لم تكوني محبة لصحبة نفسك.

ردت بجفاء:

- أفضّل ألا تتكلم عن الماضي.. لم يعد يهمني ما حدث.

- حقاً؟

رنّت نبرة صوته في أذنيها، فانتزعت ذراعها بقوة من يده وهرعت إلى الخارج وهي تشعر بأن الألم في ذراعها لا يضاهي أبداً ذاك الذي في قلبها. واضح أنه لم يسامحها على ما يعتقد أنها مذنبة فيه. في موقف السيارات، أحست بالرهبة من تعقبه لها. لماذا لا يدعها وشأنها؟ ألا يدرك كم قاست حتى الآن؟ عندما أصبحت مورينا على مقربة منها، كان مادوك قد سبقها إلى سيارة باميلا فقال للسائق تيري:

- أخبر سيدتك أنني سأقل الآنسة براندز بسيارتي بنفسي.

- حاضر سيد لامب.

وعاد تيري يقفز ثانية خلف المقود.. بعد لحظات كانا داخل سيارة مادوك، منطلقاً فيها.

كان القمر تلك الليلة بدراً، منخفضاً فوق بورتوريكو وهو إلى ذلك أصفر يهدّد بالخطر ولا يوحي بالرومانسية. ارتجفت مورينا لأن عضلاتها العاجزة عن الاسترخاء تؤلمها ولأن نظرة واحدة إلى

وجه مادوك تزيد من مخاوفها، صاحت:

ـ لا أفهم لماذا تفعل بي هذا؟ ألم يكفك ما فعلته؟

ـ إن كنت تشيرين إلى ما فعلته أنت بي فالرد هو لا لأنني في الواقع لم أبدأ بعد

حاولت أن تبتلع كبرياءها قليلاً:

ـ مادوك.. لقد أوضحت رأيك بي بعد الحادثة.. فماذا تريد بعد؟

ـ ليست المسألة ما أريد بل ما ستفعليه أنت. اصطحبت كارمن معي وهي ما تزال عرجاء وبناة عليه يمكنها الاستفادة ممن يرافقها

أحست بالبرود:

ـ وهل ستلومني على الحادثة إلى الأبد؟

ردّ بصوت قاسٍ وهو يشدّ فكه:

ـ وعلى من سواك يقع اللوم إذن؟ لم أمسّ شيئاً موريتا.. فلا تحاولي التهرب. لقد قاست كارمن كثيراً، لذا لا داعي إلى التذمر إن طلبت منك العون. تذكري، ليست سافاك ما تهشمنا حين حطمت السيارة، فكوني حامدة ربك.

لم يكن هذا أسوأ ما حدث! فما حدث قبل تحطم السيارة هو ما تسبب بالضرر الأكبر، ولو بطريقة مختلفة. وفي كلتا الحالتين كانت شقيقته وعشيقها هما المسؤولين ولكن كارمن على ما يبدو لم تخبر مادوك الحقيقة. همست موريتا ووجهها شديد الشحوب.

ـ أنا آسفة.. أملنا جميعاً أن تنجح العمليات الجراحية التي أجريت لكارمن في لندن.

ـ لكن الأطباء لا يجترحون المعجزات.

بدلت موريتا جهداً لئلا تسمع الألم المبطن في صوته..

وقالت:

ـ سأزورها دون ريب.

ردّ ساخراً:

ـ يا لكرمك!

ـ متى تناسبك زيارتي؟

قاطعها بغضونة:

ـ سنتناقش هذا في وقت آخر. فلا أريد الليلة إزعاجك بل أخشى أن أتهور بقول ما قد أندم عليه في الغد.. ومع ذلك لا أستطيع مقاومة التوق الذي يدفعني إلى أن أكتشف ما يجد فيك الرجال مما لا يستطيعون مقاومته؟

لم يكن سؤاله بحد ذاته مهيناً بل طريقة طرحه. ردت ببرود

ـ لا يجدني الرجال على ما أظن جذابة.

ردّ معترضاً بطريقة فظة:

ـ كان الرجال في حلبة الرقص يلتفون حولك كالذباب.

ـ أنت تبالغ! أعترف أنني راقصت العديد من الشبان الذين أعرفهم، ولكن لم يحاول أحدهم مغازلتي.. مع ذلك هذا ليس شأنك!

ردّ وكأنها لم تتكلم:

ـ لا أصدق الأمر.. كيف تفعلين هذا؟ فستانك جميل، نعم، إنما أنت لست بهية الطلعة.

حاولت الرد بعدم اكتراث:

ـ شكراً لك.

ـ ألا يعرفون مدى حقارتك؟ أم أنهم يعرفونها بنعم المعرفة؟ أرعبتها كراهيته ورغبته في إيلامها.. ولكن ماذا عليها أن تقول دفاعاً عن نفسها؟ الظروف كلها ضدها، ولا طريقة تستطيع من

خلالها حلّ نفسها من المسؤولية دون توريط كارمن التي عانت الأمرين. فكرت بمرارة، ترى هل سيصدقها مادوك إن باحت بالحقيقة؟ أليس الحريّ بها أن تترك الأمور على ما هي؟ فقد لا يمكث في الجزيرة طويلاً، أما هي فستحميها اللامبالاة التي بنتها حول نفسها في السنتين الماضيتين حتى يرحل من جديد. فماذا سيحققان من الاستمرار في الوعيد والتهديد أو في تمزيق بعضهما بعضاً إرباً؟ قالت باحتجاج:

ـ أرجوك مادوك.. لا أرى جدوى من هذا النقاش. فلا شأن لك بما سأفعله.

ـ نعم... لا شأن لي.. ولكنني لا أراك أكثر من طفلة.

ردّت بلسان لاذع والغضب يحرك كل كلمة تقولها:

ـ غير صحيح.. أنت تراني صغيرة لأنك توشك أن تبلغ الأربعين.

نظر إليها ببرود:

ـ أنا في الخامسة والثلاثين. أما أنت فما زلت تبدين وكأنك في السابعة عشرة.

ـ كنت في الثامنة عشرة حين رحلت.

ـ أجل.. هكذا كنت.. مضت سنتان ومع ذلك ما زلت تبدين بريئة على الرغم من مغامراتك.

همست بغضب:

ـ لماذا لا تقول «عشاقي»؟

ردّ رأسه مقهقهاً:

ـ كنت أؤمن بأنك مخلوقة رقيقة ناعمة! فصعب عليّ مسّك، فكيف في ما قد يفعله الحبيب، دون أن تصابي بحمرة الخجل؟

صراحته دفعت الدماء تجري في عروقها، فقالت وهو يوقف

السيارة أمام منزل أبيها القديم

ـ لم يكن الأمر بيننا كم تقول.

أدار رأسه:

ـ الزمن كفيل بمحو أفضل الذكريات ولكن جسمك ما زال جميلاً... وإن كان هناك ما ندمت عليه في حياتي فهو عدم استغلال جسدك قبل الرجال الآخرين... ولكن لا يمكن إحياء الشوق أما الندم فيقتضي المرء زمناً حتى يتخلص منه.

حدّقت إلى عينيه الخضراوين طويلاً قبل أن تعي ما تفعل.. كان رأيه فيها مدمراً، وهو رأي لم تتصور يوماً أنه قد يكون بهذا السوء! انسلّت منها آهة قبل أن تهرع إلى فتح الباب الذي لم يستجب. نظرت إليه فقال:

ـ إنه يعمل كهربائياً.

كيف يجلس هكذا متحدثاً ببرود؟ يجب أن تبتعد عنه قبل أن يفاقم سقمها. كان قلبها يخفق بشدة خاصة وأن شيئاً ما في نظرته أخذ يخيفها. توسلته عيناها الزرقاوان بصمت فيما صوتها راح يهمس:

ـ أرجوك... دعني أخرج.

ضغط زراً بكل هدوء:

ـ طبعاً.

أسرع هو أيضاً ليصل إليها قبل أن تخرج. فقالت:

ـ أشكر لك اصطحابك إياي إلى المنزل مادوك.

ردّ ساخراً:

ـ ما الأمر، ألا تتوقعين مني قبلة المساء؟

ارتدت إلى الوراء.

ـ لا..!

- هذا أفضل، فقد أقسمت ألا أمسّك ثانية.

ردت بحدة:

- وأنا لا أريد أن أمسّك أيضاً!

مطّ شفتيه بسخرية، فبدت أسنانه البيضاء:

- صحيح؟ حسناً.. ولكنني أرى الفكرة جيدة.

وقبل أن تتحرك، أطبق عليها، فتجنبته، لكن عناقه عنيفاً. وحين تركها كانت ترتجف، مشاقطة دموعها على وجنتيها، فقال:

- لا تقولي إنك انزعجت..؟ لقد كنت أحاول أن أعطيك كنت تتوقعينه من أحد معجبيك.

كرهته وكرهت كلماته وكرهت أكثر منهما تجاوبها الخفي الذي بدأ يتحرك داخلها:

- كان السائق نيري من سيصحبني.. هل نسيت؟

- أعتقد أنك تكتفين بأي رجل

أغضبها اتهامه المبطن فانطلقت يدها ووصلت بقوة على وجهه... كان تصرفها هذا بمثابة رد نابعاً من غضب مرير داخل قلبها.. نعم يدها صغيرة ولكن العمل خشنها، لذا لا بدّ أن تكون قد آلمته بفضل القوة الشرسة التي شحنتها فيها وعلى الرغم من ذلك لم يتحرك مادوك، بل أخذت عيناه تسخران منها فكان أن ارتدّت مبتعدة عنه.

والدها على ما يبدو نائم فليس في المنزل بصيص نور وهو هادىء إلى حد كبير بحيث لم تسمع إلا هدير السيارة وصوت إطاراتها.

اللعنة عليه! أحست موريا بحشرجة ثقيلة تسد حلقها وتلوي فمها وتجعّد قسمات الوجه الذي أسندته إلى إطار الباب الخشبي.

ملأت رئتيها بالهواء في محاولة لدفع الضيق المطبق على صدرها.. ألن يلطف بها القدر أبداً؟ لماذا عاد مادوك؟ إن مزرعته تسير على ما يرام دون وجوده. وقد تمّ استبدال أرغون غارسيا بمدير جديد، يبدو أنه يعرف ما يفعل.. إنها لم تزر المزرعة منذ سفر مادوك وكارمن إلى إنكلترا ولكن والدها يعرف ما يجري هناك.

ربما جاء مادوك في زيارة خاطفة، ولكن هذا غير محتمل لأنه اصطحب كارمن معه. ترى هل رافقه شخص آخر؟ لم يفتقر مادوك يوماً إلى الأصدقاء وكارمن كانت ممن يحب أن يحدق بها الناس، مع أن القليل القليل منهم أقام في المزرعة منذ وفاة والديهما.

سمعت غاريت براندز يصيح من غرفة نومه:

- أهذا أنت موريا؟ عدت باكراً.. سمعت سيارة.

سارت في رواق طويل نحو غرفته:

- آسفة أبي.. لم أقصد إزعاج منامك.

- لم أكن نائماً، من أعادك إلى المنزل؟

- مادوك لاعب. هل علمت بعودته؟

- تناهى إليّ شيئاً من هذا، فلم أدهش طبعاً. إنه يملك قطعة أرض شاسعة لا يمكنه إهمالها إلى الأبد.

- تيمن ديزمان مدير كفوء.

ردّ الوالد في الظلام دون أن يحاول أحدهما إشعال النور

- أجل.. لا بأس بديزمان على طريقته، إنما لا شيء قد يؤدي يد المعلم. بإمكان مادوك وعيناه مغمضتان أن يرى ما لا يراه ديزمان وعيناه مفتوحتان.

ردت بحذر:

- قد لا يمكث مادوك هنا طويلاً.

- لا.. ربما لا يمكث. هل كارمن معه؟

ابتلعت ريقها بتعاسة:

- قال إنها معه.. إنه.. أخبرني، أنها ما تزال عوجاء.

شخر غاريت يرد:

- تلك المرأة المتوحشة، ولكنه وللأسف لا يرى حقيقتها!

عفّت مورينا على شفتها، من الأفضل ألا يرى مادوك طيش شقيقته، كما يفعل والدها غالباً..

- بإمكان كارمن أن تكون لطيفة.

- نعم حين تنفذ مبتغاها.. إنها كأمها تماماً.

- أمها؟

لم يحدث أن سمعت مورينا يوماً أباها يتحدث بهذه الصراحة عن عائلة لامب. ردّ الوالد:

- كانت تبالغ في تنفيذ مبتغاها، كما كانت تبالغ بتبذير مال زوجها العجوز الذي لم يكن يستطيع منع شيء عنها على الرغم من عدم اكتراثها به.

- غاريت!.. يجب ألا تتحدث بسوء عن الأموات!

كان غاريت يرفض أن تناديه ابنته يا أبي.. أجابها:

- أنا لست منافقاً مورينا.. كنت آسفاً كالجميع عندما قُتلا أثناء توجههما إلى أميركا تاركين لمادوك ديوناً أسطورية.. فإن قرّر أن يصرف ما تبقى منه على شقيقته فهو غبي.. إن هذا عائد له.. لقد ثبت أنه عكس أبيه.

فتمتمت مورينا بمرارة:

- ألا يجب أن أكون شاكرة لهذا؟

تحرك غاريت بقلق:

- ماذا قلت يا فتاة؟ ليتك تتعلمين البوح بما في نفسك.

تنهدت:

- لا شيء غاريت. لم أكن أعرف شيئاً عن والدَيّ مادوك.. بدّوا لي زوجين عاديين. ربما لهذا لم يتزوج.

- كان عليه أن يصطحب زوجة من إنكلترا. من يدري ماذا كان يفعل في إنكلترا.

أحست مورينا بالبرد يجتاح جسدها، فقد تذكرت أن كارمن تحدثت عن فتاة في لندن مخطوبة له. كان هذا أحد الأسباب التي منعتها من تصحيح رأيه الشنيع بها قبل أن يسافر. سمعت أباها يكمل:

- سنكتشف قريباً.

- أجل يا أبي.. أنا متعبة.. عفواً أبي سآوي إلى فراشي أراك في الصباح.

عندما أصبحت في غرفتها ترددت فلر أوت إلى فراشها لاستلقت متقلبة تفكر في مادوك.. ثارت فجأة فأسرعت تنزع فستانها عنها، غير عابئة بتمزقه، علماً أنه الثوب الوحيد الذي تملكه، ولأنها لا تكسب الكثير، فقد لا تتمكن من توفير ما يكفي لشراء غيره. صحيح أنه ثقيف مرتب إلا أن لونه الوردي باهت قليلاً... تذكرت المرة الأولى التي شاهدها مادوك ترتديه وذلك يوم أخرجها في عيد ميلادها الثامن عشر.. يومذاك لم يبد أنه لاحظ خبو لونه.

ارتدت بصمت وسرعة شورتاً وقميصاً ثم انطلقت إلى الخارج تركض نحو الشاطىء الذي رمت نفسها على رماله تدفئ وجهها بشمسها لن تنزل الماء.. على الرغم من توقها إلى برودته المنعشة هذا في البحر، كان لقاؤها الأول بمادوك لامب، حين ظنها تغرق، فأسرع يجرها إلى الشاطىء. لم تكن لتعلم يومها أن ذلك

الحادثة بداية لصداقة رائعة، صداقة لم تدم سوى بضعة أسابيع.

يومذاك صاحت وهي تكاد تختنق «دعني أيها المتوحش!» كانت تقاومه لكن أنّى لها مقاومة رجل يفوقها قوة ضعفين أو يزيد.

ولكنه لم يأبه لها، معتقداً أن احتجاجاتها هذيان من هو مشرف على الغرق. فكان أن اشتدت ذراعه حولها، رافساً الماء بساقيه المديدتين، جارّاً إياها بدون رحمة إلى الشاطىء حيث أدار وجهها إلى الأسفل، ليخرج الماء من جوفها، شعرت في ذاك الحين أن روحها ستخرج من جسدها وقد تمكنت أخيراً من التلوي والتدحرج بعيداً عنه، صائحة:

- قلت لك إنني بخير أيها الوحش!

وأرجعت شعرها المتقطر ماءً لترى وجه هذا الذي يشدّها شعرها معتبراً نفسه منقذها، وعندما رأته انتفضت فقد عرفته. نعم لم تكن قد رأته منذ سنوات لكنه الرجل صاحب المزرعة المجاورة التي تبلغ حدود البحر. فارتفعت يدها تغطي ارتجاف شفتيها:

- سيد لامب! أوه أنا آسفة! لم أعرفك.

بدا في عينيه لمحة سخرية وتسلية:

- وهل من المهم من أنا؟ ما كنت أظن أن لهذا فرقاً كبيراً.

- بالطبع له ذلك.

- إذن لولا تعرفك إليّ لتلقيت المزيد من لسانك اللاذع المتوحش؟

- لا تلمني إن ازعجت... ترى ألن تتزعج إذا جاء أحدهم وأنت تتمتع بالسباحة بهدوء وسلام، فأمسك بشعرك وشدّك به حتى يكاد ينتزعه من جذوره؟

- شبّ حريق في البحر منذ ساعات، غرق فيه مركب من المراكب والمفجع أن شخصين ما زالا مفقودين، فظننتك أحدهما.

رفعت وجهها إلى الريح التي طفقت تجفف أطرافها:

- هكذا إذن.. أتظن أن هناك أملاً؟

- بعض الأمل على ما أخشى.

صمتا بضع لحظات تجمعهما الشفقة على المسكينين، ولكن مادوك لم يلبث أن هزّ كتفيه:

- لو سمحت سأنزع ملابس السباحة لأرتدي ثيابي فهلاّ أشحت نظرك إلى الجهة الأخرى؟

احمرّ وجه مورينا، فأشاحت وجهها بسرعة ولكن قبل ذلك تسمّرت عيناها فترة وجيزة عليه فتراءت لها قوته.

كانت قد ابتعدت عنه كثيراً حين لحق بها.

- قلت لك أشيحي وجهك ولم أطلب منك الابتعاد.

التفتت إليه فرأته يبتسم ممازحاً وفي هذه اللحظة بالذات انتبهت إلى طوله العارم فصاحت:

- لا أذكر أنك طويل إلى هذا الحد.

ابتسم لها:

- ولا أذكر أنك طويلة أيضاً. يبدو أنك تعرفيني، لكنك لم تذكري حتى الآن اسمك... هل أنا محق في تقديري؟ هل أنت ابنة غاريت براندز؟

- أجل.. أتعرف أبي؟

- أعرفه منذ ولادتي.

ابتسمت فجأة أكثر سعادة:

- أتسافر دائماً إلى إنكلترا؟

- لا أسافر رغبة في السفر.

كان عليها الآن الذهاب لارتداء بعض الملابس، لأنها لا تشعر بالراحة وهي في ثوب السباحة هذا وهو ما ترتديه عادة طوال اليوم،

لتجمع أصداف البحر.

يومذاك وقف كل منهما يدرس الآخر بصمت ودقة، كان يمعن النظر في وجهها وكأنه يجد من أمامه مثيرة للاهتمام. وحين عضّت شفتها سألها بسرعة عما إذا كانت واثقة أنها على ما يرام.. فردت عليه:

- كنت على ما يرام حتى جئت أنت.

مدّ يديه ليمسك بها:

- هاي! تبدين مستاءة.. هل آذيتك حقاً.. أفعلت هذا؟

على الرغم من أنها بذلت جهداً كبيراً لتبقى هادئة، تساقطت دموعها فحاولت مسحها بيدها:

- ليس الأمر كذلك.

- هل تخبرينني ما الأمر؟

شدّها بحنان إلى كتفه العريضة فسمح بذلك لوجهها الرطب أن يحمد قميصه الناعم، فيما راحت يده تدلك بنعومة مؤخرة عنقها. تمتم بضع كلمات، فاسترخت عليه وهي تشعر بالراحة. كان لطفه قد أبطل توترها، فانتحبت معترفة:

- كنت مجرد سخيفة.

أخذ يلثم دموعها المتساقطة على وجنتيها:

- بشأن ماذا؟

وتدفق كل شيء من نفسها وكأنما لمسته العطوف حطّمت سدّ اليؤس، وقالت له:

- اليوم عيد ميلادي الذي لم يذكره أحد.

تصلّب مادوك وأصبح صوته قاسياً.

- بالتأكيد والدك..؟

لم تتركه يكمل، بل إندفعت هي تحس بالخجل:

- ليست غلطته، إنه ينسى عيد ميلاده. وغالباً ما نمازحه في هذا الشأن.

- لكنك لا تجدين الأمر مزاحاً الآن؟

همست تفكر بشوق في الذراعين اللتين تركتاها:

- لا.. لكنني لا أمانع حقاً.. كان أمراً استولى عليّ فجأة.

خالته للحظات تجادلها ولكنه قال بهدوء:

- كم بلغت من العمر؟

- الثامنة عشرة.

- الثامنة عشرة.. إنه عمر يخولك الزواج.. أنت غير متزوجة.. صحيح؟

- لا.. بالطبع لا..

- ولماذا.. بالطبع لا؟

نظرت إليه وقد ارتفعت روحها المعنوية فإن حسبها متزوجة فهذا يشير إلى أنه يراها مرغوبة، أو على الأقل جذّابة إلى حد تجذب معه شخصاً ما إليها. لكنها سارعت تكشف عن سرها متهورة:

- ليس لي صديق أو حبيب كذلك.

- أوَلم تصادفي أو تحبي قبل الآن أم تراك في هذه اللحظات منظرة إلى أحد ما؟

أدهشها إصراره، لكنها لم تحاول الكذب:

- لم يكن لي حبيب قط.

- ولا أظنك تلتقين بالعديد من الرجال هنا.

- لا يهمني.. فأنا أظلّ مشغولة عادة.. أجمع الأصداف وأرعى المنزل وأعتني بأبي.

عبس مادوك، لكن عينيه عادتا إلى لطفهما ما إن رأتا تبدّل

التعابير على الوجه الصغير:

- لديك وقت للأصدقاء.. إنما ليس الوقت لعيد ميلادك... فأمامك فقط ساعة أو ساعتين.

تابعت بحيرة حركات يده وهو ينظر إلى ساعته:

- لقد تجاوزت دون ، ب العاشرة سيد لامب.

- بالضبط.. أرى أن فتاة ذكية. اسعي مادوك إن كنت قد نسيته... وأنا أحب أن طحبك إلى سهرة. إنما علينا الإسراع لنحتفل قبل منتصف الليل.

لمعت عيناها للحظات بسعادة بريئة، ثم تلاشى البريق بسرعة.

- لست مضطراً إلى دعوتي سيد... مادوك لم ألتق حتى تدعوني.

- إن لم تصمتي أصفعك موريا الشابة!

لم تذكر أن أحداً ما قال لها شيئاً كهذا من قبل، فحبست أنفاسها مترددة ثم ضحكت، فغمزها مهدداً:

- أو.. سأقبلك.

ارتدت إلى الوراء مذعورة ولكنها لم تلبث أن علمت أنها مخيفة.

- سأحب رفقتك... والذي نائم، إنما لا أظنه يعارض خروجنا. سأترك له رسالة لئلا يقلق عليّ إذا ما استيقظ ولم يجدني.

- اتركي غاريت عليّ.

طمأنها استخدامه العفوي لاسم أبيها:

- لن تتأخر؟

وعدها:

- لن تتأخر.

وتركها أمام باب المنزل بعد ما وضّاها بالإسراع في ارتداء ثيابها، فهو لن يغيب إلا بعض الوقت ليحضر سيارته عن الطريق العام.

• • •

٢ ـ الهدية الأولى

كان لدى موريتا فستان طويل واحد، اشتراه لها والدها عندما سافر قبل عام إلى أميركا لتناول العشاء مع أمها التي هجرت زوجها وموريتا في الثالثة من عمرها. ومن سوء حظها أن والدها لم يكن مستعداً لإنفاق أي مبلغ من المال على ثيابها. كان الفستان بعد سنة شاحب اللون لا شكل لقماشه القطني.

ومع ذلك هزت كتفيها دون اكتراث. ماذا يهم؟ هنا في بورتوريكو، على الرغم من أنها مواطنتهما، ما كانا يخرجان ويمارسان الحياة الاجتماعية إلا نادراً، فمنذ أن هجرته زوجته راح يتزوى ويتقوقع على نفسه أكثر فأكثر مما أدى ذلك إلى أفول نجمه وبراعته أيضاً. نعم هي لا تنكر أنه حين يبذل جهداً ينتج ما هو مميز ولكن الوقت الشاسع بين التحفة والأخرى كان يطول أكثر فأكثر، حتى أيقنت موريتا أنه لولا وجودها في حياته لتخلى عن أي عمل. وهي حتى تكون صادقة مع نفسها، تجد حياتها هنا، في أرغر الترابي والكسل، مقبولة جداً وإن كان يندر في حياتها هذه المال والأصدقاء.

لكنها ذلك المساء، عندما نظرت إلى صورتها في المرآة أحست بخيبة أمل للمرة الأولى علماً أن الفستان الوردي لم يكن سيئاً عليها، بعدما ارتدته، وعدلت حزامه قليلاً، خاصة وأن من

غير المحتمل أن يدعوها مادوك للخروج ثانية معه.

كانت أداة التجميل الوحيدة التي تملكها إصبع أحمر شفاه برّاق أعطتها إياه كارمن، شقيقة مادوك. صحيح أنها كانت تمضي معظم وقتها على شاطىء البحر حتى أصبحت بشرتها برّاقة حمراء لا تحتاج إلى مساحيق، إلا أنها لم تستطع رفض أحمر الشفاه حين قالت لها كارمن إنه هدية.. وقد حدث بعد أن قبلته منها أن أدركت أن استخدامه بتعقل يزيدها جمالاً، ولكن هذا النوع من الفن لم تتقنه إطلاقاً.

لم تكن قد أخبرت مادوك أنها تعرف شقيقته وإن كان لن يمانع، وأضف إلى هذا أنهما لم تكونا صديقتين بما للكلمة من معنى، وقد تساءلت أحياناً لماذا تزعج كارمن نفسها بصحبتها، إنها أكبر منها، وهما إلى ذلك لا يملكان قاسماً مشتركاً، فكارمن متعلمة مثقفة منفتحة على العالم الذي زارته كثيراً، أما موريتا، عدا رحلتها إلى أميركا، فلم تذهب إلى أي مكان.

سمعت هدير سيارة مادوك فعلمت أنه وصل. وكانت قد شعرت بلطفه الفائق لأنه تأخر قليلاً لئلا تحسّ بالقلق إذا ما انتظرها.

أضفى قرع الباب مزيداً من الإحساس باللطف، فقرعه هذا يشير بأنه لا يسعى إلى لقاء سرّي، فأعجبتها رغبته في التأكد من موافقة والدها على الرغم من أنها قالت له إنه نائم.. إلا أن الباب لم يكن مقفلاً، وحين ظهرت كان مادوك يقف منفرج الساقين، يداه في جيبي سرواله. إنه رجل ضخم، لماذا لم تلاحظ هذا من قبل؟ سمعته يتنفس بحدة ويقول:

ـ هناك قول: حلاوة العشرين.. لكنك في الثامنة عشرة أين كنت مختبئة طوال حياتي يا آنستي الشابة؟

نظرت إليه وعيناها تبرقان كالنجوم وشفتاها تطلقان ضحكة صادقة لم تحاول موريتا إخفاءها:

- كنت هنا طوال الوقت، لكنك لم تلاحظ.

- نادراً ما يرى الناس ما أمام أنوفهم.. مع أنني كنت أتفخر بنفسي مدعياً أنني مراقب غير عادي.

ثم تلاشت بسمته وسأل:

- أواثقة أن غاريت في الفراش؟

- طبعاً.. أنظنه لن يأتي إلى هذا البهو لو كان مستيقظاً؟ نحن لا نستقبل إلا القليل من الزائرين.

- ولكن نومه لم يكن ثقيلاً يوماً.

تنهدت: كيف يعرف هذا؟

- وما زال غير أن رأسه كان يؤلمه فتناول على ما يبدو حبات عديدة من الأسبرين، مع أن حبتين كافيتان لإرساله إلى النوم. تفقده إن شئت في غرفته بنفسك.

- لا.. سأقبل بكلامك، ثم إن علينا الانطلاق حالاً.. هيا بنا.

وجدت نفسها مندفعة لتقول:

- غاريت يثق بي. فأنا أخرج أحياناً مع أصدقاء.

وضعها مادوك في سيارته وهي سيارة طويلة رياضية المظهر لا تذكر أنها رأت مثلها من قبل. كانت تجيد قيادة السيارات، إلا أن غاريت لم يقتنِ سيارة منذ مدة طويلة، لذا تعتبر مطلق سيارة فخمة. سألته:

- إلى أين سنذهب؟

- ثريني ثري ما يسرك.

- أيجب هذا؟

- يجب.. موريتا براندز. أقسم أنه سيعجبك.

- لا أريد الذهاب إلى مكان فخم.

أبقى عينيه على الطريق، حذراً من الحيوانات الرابضة فوقه، ومن الناس أحياناً.. سألها:

- ما هي الحياة التي تعيشها حقاً موريتا الصغيرة؟

- أعيش حياة هادئة، على ما أعتقد.

انتقلت عيناه إلى عينيها قبل أن تتمكن من إبعادهما ثم تمتم، بعدما أعاد بصره إلى الطريق لمرور شيء أمامه:

- هادئة جداً على ما أعتقد.

همست بقلق:

- ولمَ تظن ذلك؟ أعرف أنني كنت مجبلة نفسياً حين قابلتني هذا المساء، ولكنني أرضى بواقعي عادة.

- وهذه ميزة نادرة في امرأة.. ميزة نادرة في هذه الأيام على الأقل، وربما يعود السبب إلى مسألة المساواة التي تضجّ بها أدمغة النساء اللاتي يشعرن دائماً بأن لديهن نقصاً ما، وبأن العشب في الناحية الأخرى من السياج أخضر، وهذا ما يجعلهن غير راضيات أو قانعات بما لديهن، وغير واثقات بما يردن كذلك.

كان كلامه مبنياً على تجربة شخصية. فنظرت إليه بفضول، وسألت:

- تتحدث وكأنك لا تعتبرني إحداهن.

ابتسم:

- لا أظنك مثلهن، على الأقل حتى الآن، فلست كبيرة جداً.

أحست بالجرح فردت بنبوخ:

- إن لم أكن.. فقريباً أكون.

تنهد بعمق:

- ها قد فهتِ بكلمات رديئة، وأنت لم تبلغي بعد من النضوج.. عفوك آنستي.

لم يعجبها المرح في صوته، فردت بحدة:

- أنت ناقد ساخر للنساء. أتصور أنك تعرف الكثير عنهن كما أراك تتحدث عن سابق خبرة! ترى إلى أي نوع تنتمي تلك النسوة اللاتي تعرفهن؟

ابتسم لكنه أجاب بوقار:

- أحب النساء اللطيفات، المفعمات بالأنوثة، المستعدات للاهتمام بي عوضاً عن الاهتمام برصيدي في المصارف.

بدا كلامه هذا تعجرفاً بعض الشيء.

- أنت تفضل النساء ذوات الروح العالية.

- آه.. الروح العالية.. أجل.. إنما لم نكن نتحدث عن هذا الأمر، فروح المرأة عندي هي أن تحب، وتخلص وتقاتل في سبيل عائلتها وفي سبيل ما تؤمن بأنه حق. فالمرأة قادرة على النجاح إنما يجب ألا يجعلها ذلك تفقد المرأة التي فيها أو الرجل الذي أمامها لإثبات قدرتها.

قطبت مورينا جبينها فقد اتخذ حديثهما وجهة مدهشة تمنت معها لو تملك المزيد من الخبرة لتتناقش معه.

- وكأنني أراك غير موافق على عمل النساء... هل تتزوج امرأة عاملة؟

- أتزوج المرأة غير الطموح. أترين يا طفلتي، فبينما تجدين النساء عازمات الرأي على التغيير، ترين الرجال رافضين التغيير، فما زال العديد منا يرغب في ربة عائلة تصب اهتمامها على منزلها وزوجها فقط.

- أليس ذلك أنانية؟

- لا إذا ما فكرنا في ما نقدمه في المقابل من أمن وحماية وحب وعمل سبعة أيام في الأسبوع، وما ذلك إلا لتظل المرأة هانئة البال مطمئنة.

بدا لها النقاش تافهاً، فأخفضت أهدابها مفكرة:

- لا يمكن أن تصدق أن هذا ما يحدث دائماً! يبدو لي مثالياً.. لكن الكثير من الرجال مقصرون.

- أجل.. أعرف هذا.. إنما قد نتحسن، لو أعطيتمونا التشجيع المناسب.

لم تطلب منه توضيح قوله هذا بل أحست بقشعريرة حين لاحظت عينيه مستقرتين على شفتيها.. قالت له كلاماً أجوف:

- تعلم أن والديّ منفصلان؟

- بل أذكر أمك مورينا، ولكنني لا أقصد تذكيرك بها، خاصة هذا المساء.. إن هذا ما يحدث حين يبرهن المرء عن صدق نظريته.. وكثيراً ما يرتحل النقاش بعيداً فيشعر شخص ما بالألم

- أوه.. لا أشعر به.. ولكنني لا أقول إنني موافقة على ما فعلته أمي التي سامحتها منذ أمد بعيد خاصة وأنني لا أعرف شيئاً عما فعله أبي.

- وهل شاهدتها منذ ذلك الوقت؟

- أجل.. في نيويورك. لقد تزوجت ثانية، ألا تعرف هذا؟

- أعتقد أن أحدهم أخبرني.. ربما غاريت.. ألم ترغب في أن تكوني معها.

- عندما زرتها كانت المرة اليتيمة التي تكلمنا فيها على انفراد يومذاك قالت إن بإمكاني العيش معها إذا أردت، ولكنني لم أفعل فلا أظنني بغض النظر عن أي شيء أحبّ جو المدن

ضحك:

إذن، لم تعجبك أمريكا؟

- ليس كثيراً.

- ولكن والديك أمريكيان.

- أجل غير أنني أحب هذه المنطقة.. فقد ولدت وترعرعت فيها.

- إنه مكان رائع. إن بورتوريكو إحدى أهم الجزر في الأنتيل، على الرغم من شائعات البطالة فيها وأظن أن مستقبلاً زاهراً ينتظرها.

تناولا العشاء في مطعم هادئ، على خليج ساحل مایاجوئز الغربي. وهناك وجدت الشجاعة لتقول:

- بك تحب بورتوريكو كما يحبها أبي تماماً. فلماذا تمضي معظم أوقاتك في إنكلترا إذن؟

أجاب برد مراوغ بارع

- عندما أتيت آخر مرة إلى بورتوريكو كنت وخاريت غائبين، بما كنتم في بيويورك.

- آخر بقينا هناك ستة أشهر.. فقد أقنع أحدهم خاريت بإقامة معرض، لم ينجح كثيراً للأسف، وكذلك كان حال رحلتنا، فالعمل كان بارداً، ولم نستطع تحمل تكاليف الإقامة.

- ولماذا لم ينجح المعرض؟

- لست واثقة.. لكنني سمعت ناقداً يقول انه فقد سحره السابق. فيما قال آخر إنه فقد عدوانيته، ولا أدري ما يعني هذا.

هز رأسه وكأنه يفهم:

- ولم هذا يحسب ظنك؟

- لا أدري، لقد أخبرني مرة أن الفنان يحتاج إلى رغبة في إيصال فكره حتى ينجح. وعلى ما يبدو أنه فقد هذه الرغبة بعدما

هجرته أمي.

كان الطعام رائعاً، فأكلت منه بشهية وهو مؤلف من الكركند اللذيذ والأناناس الطازج. وركزت على معرفة ما في شراب الأناناس، بدلاً من التركيز على وجه مادوك، لكنها في الصمت الذي طال سمعته يسأل:

- هل ورثت شيئاً من قدرته الفنية؟ لقد كان يوماً من المشهورين.

ما ألطف قوله هذا! وضعت شوكتها والسكين بحذر وقالت:

- فكرت مرة في رسم تصميم ذي ثلاثة أبعاد، ولكن دراسة مثل هذا الفن والتفرغ له يقتضي ترك غاريت فترة طويلة.

- فكان أن تخليت عن الفكرة؟

ابتسمت:

- لا.. ليس نهائياً.. نعم لا أنكر حبي للعمل في الفضة والسيراميك، ولكن ذلك لا يرضيني كل الرضاء.

- وهل تبيعين شيئاً؟

- أوه أجل. هناك معرض في مایاجوئز تديره امرأة تُدعى باميلا فيغر.. إنها تشتري كل ما أحضره لها وتقول إن بيعه حسن

- أعرفها.

مایاجوئز بلدة صغيرة من السهل أن يتعارف فيها الناس خاصة المولود على الجزيرة. فأعادها ذلك إلى السؤال الأول الذي لم يرد عليه.

- لم تقل لي لماذا تمضي معظم أوقاتك في إنكلترا؟

ردّ بخفة:

- أحاول استعادة ثروة العائلة غير أنني أتمنى العودة إلى الجزيرة يوماً لأستقر فيها.

- كم ستمكث فيها هذه المرة؟

- أسبوع أو أسبوعين... هيا اشربي الآن كوكتيل الأناناس إنه أفضل شراب يعده هذا المطعم، ونادراً ما أستطيع إقناع صاحب المطعم بتحضيره لي. يبدو أن وجهك الجميل أقنعه.

هي واثقة أنه قادر على إقناع معظم الناس بما يريد إذا صمم. راح مادوك يتحدث مع صاحب المطعم الذي تعرفه منذ زمن بعيد فأخبره أن الليلة عيد مولدها الثامن عشر فقال:

- آه... إنه عمر رائع سنيورينا.. لذا علينا أن نساعدك على تذكر هذه المناسبة.

نظر إليها مادوك وسأل:

- هل سبق أن أتيت إلى هذا المطعم؟

ابتسمت واعترفت:

- أوتراني ممن يقصدون مطعماً فخماً كهذا؟!

- أنا لا أسعى إلى التأثير فيك فاطمئني سأعيدك إلى المنزل سالمة

قالت بارتباك:

- لكن قد يحدث شيء قبل ذلك.

- أتلمحين إلى أنني أحاول إغوائك أيتها الصغيرة؟

تورّد وجهها فحاولت لتخفي مشاعرها الرد بوقار

- ليتك لا تواظب على مناداتي بالصغيرة فما أنا صغيرة إلى هذه الدرجة.

التوى فمه

- ربما أناديك بالصغيرة لأقنع نفسي

- لماذا؟

ضحك بلطف

- ما من أحد سوى الصغير والبريء يسأل سؤالاً كهذا.

- تشعرني كلماتك هذه بأنك مؤمن بأنني ما زلت في المهد!

سرعان ما عبس ناظراً إليها بإمعان:

- أنت فعلاً صغيرة مورينا، أو هكذا تبدين لي، ما هي الثمانية عشر عاماً أمام الاثنين والثلاثين. أعتقد أنك بالنسبة لخبرتك أصغر سناً من سنّي عمرك. فلا تحاولي إغرائي حلوتي!

- لكنك قلت إنني في سن مناسب للزواج!

- فعلاً!

- إذن، ما هي هذه الخبرة التي تتحدث عنها؟ هل هي بعض المناقات؟

- هذا ما يثبت أنك صغيرة.. فالأمر يتعدى بعض المناقات كما ستكتشفين يوماً دون شك.

جعل الجو الساحر حولها، ومحاولتها التمنع بأسره الت أمامها وردية، أحست بالتهور، فقابلت نظرته المفكرة مبتسمة

- يجب عليّ أن أبدأ بالاستكشاف يوماً.

اشتدت قسوة نظرته:

- لكن ليس معي! أنت مزعجة صغيرة فعلاً سورينا لكن ليس لدي الرغبة، أو النية في أن أكون المبادر إلى تعليمك، فيقع بقع رجل مثلي ببعض المناقات.

تضرّج وجهها وتبدّل مزاجها:

- لماذا لا تقول بعض المعاتبات الساذجة؟

بدا لها غاضباً، لكن أساريره لم تلبث أن استرخت.

- أليس هذا صحيحاً؟

أحست بالخجل. فأخفضت رأسها وهمست:

- لا أدري ما دهاني لأقول هذا...

ـ قلت لك، إنه العمر الوردي.

مال فوق الطاولة ليرفع ذقنها بإصبعه، وعندما قرأت النفران الدائي في عينيه:

ـ لقد أسأت فهم قصدك... إنما هذا يجب ألا يفسد علينا أمسيتنا. أتريدين الرقص؟

وتمتعت موريتا بما تبقى من السهرة كثيراً، مع إنها أحست بالذنب لأنها تأخرت في العودة... حين اعترفت أمامه أنها لا تجيد الرقص، قال لها إن الرقص يجري في دماء أبناء الجزيرة، وقد صحّ كلامه فما هي إلا بضع دقائق حتى تغلبت على ارتباكها، وراحت تتابع تحركاته الراقصة دون جهد. ولكن، تمتعها بوجودها بين ذراعيه كان يفوق تمتعها بالرقص، فهي لم تكن تشعر إلا أنه جزء منها.

بعد أن أوصلها إلى باب المنزل، قال لها إنه سيزورها بعد ظهر اليوم التالي ليتحدث مع أبيها. فهزت رأسها قائلة:

ـ سأكون على الأرجح على الشاطئ، أجمع الأصداف.

ابتسم:

ـ جيد. سأراك هناك إذن.

انحنى فجأة ليطبع قبلة خفيفة على جبينها، كانت بخفة الريش، ولكن السعادة التي اعتملت نفسها كانت حقيقية. وقد سمعت نفسها تشهق عندما قال:

ـ اعتبري هذه هدية عيد مولدك حتى أعود.

حاولت التفوه، لكن قبل أن تجد صوتها كان قد غادرها.

في الصباح لم يشر غاريت بكلمة إلى خروجها بالأمس مع مادوك.

ـ مادوك قادم لرؤيتك في وقت ما اليوم، أو هذا ما قاله.

عندما هز كتفيه فكرت في أنه يبدو رغم بلوغه الخامسة والخمسين قوياً سليماً وكأنه أصغر بعشر سنين:

ـ وهل كان يهتم فقط بالسائحين الضائعين؟

ـ لم يكن اهتمامه بي على أي حال. فلم نكد نتعارف لأنه لم يسبق أن زرت مزرعتهم سوى مرة عندما دعتني كارمن ولم يحدث أن شاهدت مادوك أكثر من خمس مرات في حياتي.

ـ أكنت ترينه عندما يأتي ليزورني؟

ـ لماذا يأتي إلى هنا؟ لم أعرف يوماً أن بينكما صداقة.

ـ يأتي مراقباً.

ـ ماذا يراقب؟ ماذا تعني؟

ـ دعكِ من هذا.

فهمت من إيجازه الكلام أنه لا يرغب في إعلامها. فكان أن راحت تحاول الاستنتاج وحدها وهذا ما تفعله عادة عندما يقول غاريت شيئاً مبهماً... تحدّ أرض مادوك أرضهم التي تقع معظمها على الخط الساحلي وهي لا تقارن بمزرعة مادوك الضخمة. ولأن أرضهم تحدّ أرض مادوك يرى أن عليه أن يتفقد هذه الحدود، ويبدو أنه في كل مرة يتفقدها يزور والدها من باب اللياقة.

بعدما حلّت هذا اللغز أمضت ساعة تتجول في المنزل ترتبه. في هذه الأثناء كان غاريت قد أنهى فطوره وجلس يتمدد متكاسلاً يقرأ الصحف التي حملتها موريتا معها من البلدة بالأمس، وذلك حين نقلت الأصداف الملونة إلى باميلا فيغر.

توقعت موريتا أن يبقى مستلقياً هناك حتى موعد الغداء كانت في بعض الأحايين تحضر له السندويشات أو بعض الحساء، وذلك بعد عودتها من الشاطئ، أو من المنزل الصغير الذي تعمل فيه عادة. أما في أوقات أخرى فكان يلحق بها إلى البحر، أو إلى

الجرف الصخري، ليسألها عما إذا وجدت شيئاً مثيراً للاهتمام، وعندما كانت ترد إيجاباً كان يعمد إلى تأمل ما وجدته وإلى مناقشتها.. نعم هي تحبه، وتقدّر له اهتمامه، ولكنها كانت تفضل لو يهتم بعمله أكثر

طلبت الأصداف طوال فترة الصباح.. وهي عادة تلمّعها وتصقلها دون أن تمسّ ألوانها الطبيعية، لأنها تفضلها على ألوانها تلك، ولكنها إضافة إلى الأصداف تُعنى برسم مناظر استوائية رائعة ملهمة، تقول باميلا إن الرياح يحيونها خاصة منها ما ترسمه من أشجار نخيل وأشجار جوز الهند، ومن منظر يخت يمخر عباب المياه الزرقاء. كانت تكتب أحياناً اسم الجزيرة والبلدة، بخط دقيق باهر، أو اسم العاصمة سان خوان، أو اسم خوان بونسيه دي ليون المكتشف الأسباني الذي احتلّ الجزيرة كلها وعيّن حاكماً لها، عام ١٥٠٨م.. وكانت مؤخراً دون أن تُعلم غاريت، تجرب رسم ما هو أكثر من مناظر طبيعية على أمل أن تعجب باميلا.

بعد الغداء ارتدت موريتا معدات الغوص وقصدت الشاطىء حيث راحت تسبح وصولاً إلى الجرف الصخري. وهناك كانت تغوص في المياه الدافئة الصافية سعيدة، قانعة فرحة بما تراه في البحر الغني بالألوان وبالصخور التي يحاذي العديد منها الشاطىء، وهي صخور تحور على إعجابها لذلك تقضي الساعات في استكشافها

حين بدأت تبحث عن أصداف مناسبة، بذلت جهداً يفوق العادة، فجاء بما لها من الهم أن تشغل نفسها ما وسعها إلى ذلك سبيلاً لتمنع نفسها من التفكير في مادوك لامب وأسبابهما. كان لطيفاً، يشفق على فتاة صغيرة مرّت بخيبة أمل، فمن الغباء أن تقرأ المزيد من وراء دعوته أو تبالغ في تفسير المشاعر التي كانت

تخرها حين كان يلمسها ومن قلة التفكير تفسير أي شيء من ور
قبلته الوداعية التي كانت مجرد تحية لا تختلف أبداً عما قد يعم
مع أي فتاة في عيد مولدها.

كان مادوك حين عادت إلى الشاطىء بانتظارها. وضعت يده
لا إرادياً على قلبها خشية أن يلاحظ خفقانه المعاجىء الغريب
ولكن كيف لها أن تخفي شيئاً عنه وهي مرتدية ثوب السباحة هذا
حدّقت إليه بعينين دهشتين فرأته يتقدم إليها. قالت هامسة
بخجل:

ـ مادوك!

ـ مرحباً موريتا.. لن أسأل عما كنت تفعلينه لأنه واضح!

ابتسمت، وكانت هذه الابتسامة كل ما وسعها فعله. أما هو
فوقف يحدجها بنظراته الثاقبة يتأملها من رأسها إلى أخمص قدميها
ولكنه في النهاية ثبّت بصره على وجهها وشفتيها المرتجفتين.

ـ تذكرينني بحورية البحر الجميلة المغرية

أحسّت حين كانت معه في الأمسية السابقة ببعض المشاعر
المخيفة المربكة التي خالتها في الليل خيالات. ولكنها الآن
وجدت أنها لم تكن تتخيل وأنه يثير فيها فعلاً مثل هذه المشاعر.
فارتبكت وتشوّش تفكيرها. حاولت بتوتر أن تحذّر نفسها فهو أكبر
منها وهو إلى ذلك يفوقها خبرة... ولكن ما إن التقت عيناها عينيه
الخضراوين حتى تعثّر عليها كبح الإثارة الداخلية. سألته أخيراً،
محاولة التحدث بهدوء:

ـ جئت تطلب رؤية غاريت؟

ـ لقد رأيته. كنت أبحث عنك منذ عشر دقائق حتى بدأت
أقلق.. ماذا كنت تفعلين عدا رفع ضغط دمي؟

ضحكت فأحست فجأة بالراحة.

- أوه.. لا شيء محدد.. لم أجد شيئاً، على الأقل لم أجد ما يثير اهتمامي وعليه يكون وقتي قد ضاع سدى.

تجاهل كلامها:

- كنت أتفرج على بعض أعمالك. لعلك لا تمانعين!

عاد يتأمل وجهها، وكأن عينيه لم تتركاه لحظة. ولكنها ما عادت تشعر بالارتباك، فقد بات رأيه بعملها أهم عندها... فتمتمت:

- أنا.. لا أمانع أبداً.. ما رأيك؟

أمسك بذراعها يديرها ليسيرا معاً على رمال الشاطىء:

- أعجبتني..

قبل أن يصلا إلى المنزل، جرّها إلى ظلّ شجرة نخل عملاقة وقال:

- يعجبني ما تضعينه على الأصداف فهو مميز فعلاً.

- يبدو أن هذا ما يجعلها مطلوبة، مع إنني أفضلها على حالها.

تأملها فترة وإصبعه تعبث ببشرة ذراعها، مرسلة دغدغات لذيذة فيها.

- ورسوماتك الصغيرة جديدة أيضاً... يبدو أن لديك إحساساً بالألوان، وهذا أمر مميز.

- ربما هذا ما يجعل عملي أفضل مما هو فعلاً.

- لكنني أظن أنه مع بعض التدريب تقدرين على النجاح بالرسم. لذا أتوقع أن تخطفك مصانع النسيج... فمواهبك ضائعة في هذا المكان.

ابتسمت تهزّ رأسها دهشة مما يفكر فيه.

- أنا سعيدة هنا. فهذا موطني، وأنا قانعة تماماً به. أتى أناس كثر إلى الجزيرة، ولم يحدث أن اكتشف فيها أي مغامر منهم ما

يثير اهتمامه وليت ذلك لا يحدث أبداً.

ضحك على لهجتها القاسية:

- وأنا كذلك.

- ستذهب إلى البيت الآن؟

ما إن التقت عيونهما حتى شعرا بأنهما معلقان في زمن وعالم خاصين بهما.. وسرعان ما نسيت أن لديها موعداً مع شركة قد لا تتمكن من رؤية أصحابها ثانية.. ردّ عليها:

- ليس الآن...

وكأنما ذكّرته بشيء.. فمدّ يده إلى جيبه يخرج منه علبة صغيرة قدّمها إليها قائلاً بنعومة:

- هذه هدية ميلادك.. ولو متأخرة يوماً واحداً.

• • •

٣ - أريدك بلا قيد أو شرط

أحست موريتا بالبهجة، والإجمال في آن عندما نظرت إلى العلبة الصغيرة التي وضعها مادوك في يدها. لم تكن تتوقعها وقد عرجت بها حتى كادت تفقد القدرة على النطق. فهي لا تذكر متى تلقت لأخر مرة هدية من أحد، فوالدها لم يعد يهتم، أو يلحظ تاريخ مولدها أو الأعياد الخاصة.

كانت تحس من بين الدهشة والفرح يدمع في عينيها شعرت منها بالخجل... ماذا يفكر فيها مادوك الآن؟ همست:

- أهذه حقاً لي؟

- أنت تسألين أسخف الأسئلة موريتا برانديز.. هل كنت أقدمها لك لو لم أحسبك بها؟

- لا أعتقد...

مرر إصبعه على خدها الرطب:

- ألن تفتحيها؟

- بلى

كانت كطفلة غير قادرة على فتح الهدية التي كانت عبارة عن قرطين صغيرين. ما إن وقعت عيناها عليهما حتى شهقت:

- أوه... ما أجملهما! هذا كثير... كثير.. خاصة بعد ما فعلته من أجلي.

لم يبتسم، بل هزّ رأسه وأخذ العلبة من يدها المرتجفة.

- الاحظ أن أذنيك مثقوبتان.

- أجل.. تمّ ذلك في نيويورك ولكن غاريت لم يستطع شراء سوى سدادتين ذهبيتين صغيرتين... ما كان يجب أن تدفع هذا المبلغ.

- موريتا! أنت تختبرين صبري بافتعال ضجيج حول لا شيء.. اشتريتهما سعيداً لأنهما سيسعدانك. ألن تريني بهما؟

حاولت ولكنها ارتجفت تحت نظرته الحادة، فقال:

- اتركي لي هذا.

أحسّت بلمسة أصابعه على أذنيها وعنقها وبشعور غامر تدفعها إليه لمساته الرقيقة، كما أحست بأن شيئاً ما يتحرك في داخلها مترافصاً كما تتراقص ألسنة النار.

عندما شعر بها تتنفض اعتذر ولكن اعتذاره ذاك لم يسع لتركيزه بالتشتت:

- آسف.. لم أقصد إيلامك.

- أنت لا تؤلمني.. لكنني فكرت فجأة أن أبي قد يعترض إنفاقك المال عليّ.

- أنت لا تستسلمين أبداً؟

تراجع ليتظر ما فعلته يداه، فضاقت عيناه إعجاباً فقد كانت الهدية متناسقة مع خطوط الوجه الصغير.

- لم أنفق في الواقع شيئاً.. لأن هذا القرط كان لجدتي في طفولتها، وهي دون ريب كانت سترضى بانتقاله إليك.

- أتعني.. إنه.. نوع من الإرث العائلي؟

ضحك مادوك على تعبيرات وجهها:

- لا تظهري هذه الدهشة وكأن الأمور ازدادت سوءاً موريتا!

أخشى أنك لن تسري به حين أعترف أن القرط لا يساوي الكثير.

أحسّت موريتا بالراحة والسعادة.

- آسفة.

- أنا مسافر غداً إلى سان خوان، فهل ترافقيني؟

لم تبلغ كلماته عقلها في اللحظات الأولى، ولكن سرعان ما توهّج وجهها وصاحت:

- سأحب هذا!

- هذا ما يعجبني فيك موريتا، أنت لا تتصنعين.

- أتصنّع؟

- لم تدّعي مثلاً أنك مشغولة أو غير مهتمة، ولم تلجئي إلى الوسائل التي تستخدمها النساء لإثارة شهية الرجل.

- كان يمكن أن يكون لديّ موعد آخر.

ابتسم:

- وما أسهل ذلك ولك هذا الجمال الذي قد يجعلك محدقة بالمعجبين. لقد قلت لي أن لا أصدقاء لديك.. لكنني أحسب قولك غير صحيح تماماً.

- بل كان صحيحاً.

تورّد وجهها بتماسة لأن كلامها سيوحي له بأن لا أحد يوقف فيها. فلامس خدها الدافىء المتورد بأصابع ممازحة.

- لعل هذا ليس دليل الذنب!

- لا..!

ساد صمت قصير مداجىء راح خلاله يتابع التغرّس فيها. لم يسمعا في لحظات صامتة سوى تغريد العصافير، وأغنية قيثارة الحقل، وهمس الأمواج من بعيد.. ثم قال بحزن:

- ربما هو دليل بساطتك - لا تحطئي في فهم قصدي أنا لا

أتكلم عن ذكائك لأن لا أحد قد يشك فيه بل أشير إلى هالة البراءة المحيطة بك. هذه الهالة التي لم يسبق أن رأيت مثلها من قبل وهي تثير اهتمامي.

ارتجفت موريتا تحت يديه، ومع أنه لم يحاول ضمّها إليه، كانت تحسّ بقربها من جسده الطويل النحيل.

حين لم تتكلم، سألها بوقار وكأن السؤال مهم جداً له:

- موريتا.. أتثقين بي؟

- طبعاً.. أجل.. أثق بك! وهل هناك ما يدعوني إلى عدم الثقة بك؟

ابتسم:

- ما هذا بسؤال تطرحينه على رجل في مثل عمري يا حلوتي.. لكن لا.. بالنسبة لك ليس هناك ما يدعوك إلى عدم الثقة بي والآن عليّ أن أغادر. أراك في الصباح

لم تتذكر موريتا أنها لم تشكره على هديته إلا بعد ابتعاده. كان الصباح التالي يوماً من الأيام التي تقضيانها معاً فيها غدا الزمن بالنسبة لها سحر من نوع جديد.. أخرجها مادوك عدة مرات قبلا خلالها حازماً على أن يتعارفا بشكل وطيد، كان يحدثها كثيراً، حتى بدا لها أن أفكارهما متطابقة.

أخيراً وجدت موريتا مناسبة لتطلعه على معرفتها بشقيقه كارمن التي أنقذت حياتها مرة وذلك حين كانت في إحدى المرات تستكشف مغاور في جزء صخري من الساحل لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق البحر. في ذاك اليوم اكتشفت أن القارب المسيّر بمحرك صغير وهو القارب الذي اعتادت على استخدامه، قد انقطعت مرساته وابتعد.. ولولا وصول كارمن صدفة في قارب بخاري صغير بعد ساعة لما عرفت ما كان سيصيبها. أردفت

ـ كنت غرقت بكل تأكيد.. ولكن كارمن لم تتعرض إلى أي خطر.

ردّ بارتباك:

ـ لم أقلق على كارمن.. ماذا حصل لقاربك؟ هل وجدته ثانية؟

ـ أجل... ولكنه كان محطماً تماماً ومنذ ذاك الوقت بتُّ دون قارب وما أشدّ شوقي إليه.

صاح مادوك بخشونة أذهلتها:

ـ عظيم!

بعد ظهر ذلك اليوم راحت تستعد لزيارة مزرعته وذلك بناءً على دعوته التي أوصاها فيها أن تذهب باكراً والبقاء حتى العشاء، وكان قد دعا غاريت أيضاً لكنه رفض، ولم تحاول مورينا إقناعه لأنها تعرف أن والدها إذا صمّم على أمر ما يستحيل القيام بشيء لمنعه عنه.

كانت الساعة قد بلغت الرابعة حين وصل مادوك لاصطحابها. سمعته يتحدث إلى غاريت في الشرفة ولكنها تريثت قليلاً لتتأمل السروال القصير والقميص اللذين ارتدتهما وبعد ذلك ألقت نظرة على الثوب الوردي الذي سترتديه بعد العشاء، تحملته بتعاسة ووضعته في كيس صغير، آملة ألا يلاحظ مادوك عدد المرات التي ارتدته فيها.

ابتسم لها حين أطلّت عليه، ومدّ ذراعه الطويلة ليشدّها إليه بلطف، فلاحظت أن هذا أصاب غاريت بالدهشة، فحدّق فيها بحدة. كان وجهها شديد الاحمرار حين دفعها مادوك إلى سيارته، فصاحت بغضب:

ـ لا تدفعني..! أنا قادرة على الدخول بمفردي!

بدا عليه الغضب:

ـ إن كنت لا تطيقين لمستي فقولي!

خفّ غضبها أثناء انطلاقهما.

ـ لم يكن الأمر كما تصورت مادوك. وهذا ما تعرفه جيداً. لكنني كنت أفكر في ما يفكر فيه غاريت.. لا أريده أن يقلق عليّ فيلغي عليّ محاضرة. حين يضع شيئاً في رأسه يظلّ مستمراً فيه دائراً حوله.

ـ ولماذا يقلق عليك؟

إشتدّ احمرارها:

ـ أوه.. حسناً.. إنه.. يخشى أن تضلني عن الصراط المستقيم.

ضحك مادوك:

ـ ليس الأمر صحياً.. وقد يحدث بسهولة يوماً ما. لقد سبق أن قلت لك ذلك من قبل.

همست وهي تشعر بأنه ضربها.

ـ توقف عن هذا! أنت تجيد إيلامي حينما تريد!

ـ أود لو... والآن هل أفهم لماذا تتجادل؟ أنا آسف مورينا حلوتي!

ـ وأنا آسفة أيضاً.

كانا يضحكان حين وصلا إلى منزله الذي يقع على بعد أربعة أميال من منزلها، وهو منزل قديم، ضخم، لا نظام له، يمتد حول طريق داخلي ملتوٍ تحده غابة أشجار، وكان الخيزران على الطريق يشكّل ما يشبه سقف كاتدرائية حقيقية وخلفه أشجار الموز وثمره الخبز وأشجار جوز الهند الضخمة، إضافة إلى العديد من الداليات الملونة التي استطاعت معرفة بعضها حين شاهدتها. قال لها مادوك

وهما يدخلان:

- أنت كارمن قبلي بشهرين للإشراف على تغيير الديكور ويبدو أنها لم تنجز شيئاً. وأظنها تريد المكوث هنا.

ولكن موريتا لا تعتقد أن المنزل هو ما يدفع كارمن إلى المكوث في الجزيرة، بل السبب أرغون غارسيا، مدير المزرعة، فهي تعرف أنهما على وئام هذا إن لم يكونا عاشقين. فقد شاهدتهما أكثر من مرة معاً، وتوقعت ألا يوافق مادوك على هذه العلاقة وهي ربما تزيده إن لم يوافق، فأرغون على الرغم من طلعته الوسيمة وبراعته في العمل لا يعجبها كرجل. وهو أبعد ما يكون عن الثقة.

سألت بخفة:

- وأين كارمن؟

أجلسها بلطف على أريكة مريحة، وقرع الجرس طالباً أحد الخدم.

- أظنها خرجت. بعض الأصدقاء اتصلوا بها ودعوها لزيارتهم بضعة أيام. فهل تمانعين لأنها غير موجودة؟ لقد عرضت البقاء حين أخبرتها بقدومك.

ردت بصدق:

- لا.. لا أمانع.

قدمت امرأة بورتوريكية ضخمة الجسم الشاي وهي امرأة سبق أن رأتها موريتا. ابتسمت لها السيدة بونيس التي كانت قد أعجبت بموريتا من اللقاء الأول. وتحدثت معها بعض الوقت فراح مادوك يصغي ساخراً وعلق بعد خروج المرأة:

- سرعان ما تنسجمين مع الناس؟

- وهل هناك ما يحول دون ذلك؟

- أبداً.. لكن كارمن أكبر منك بسنوات ومع ذلك هي ليست مثلك لأنها طالما وجدت صعوبة في الانسجام مع الناس.

كانت موريتا تعرف ما يعني، لكنها لم تعلق بشيء.. فما السبب إلا كارمن نفسها المولعة بالتنقيب عن نقاط الضعف في الآخرين لتسخر منهم، أو لتستغلهم. ومن علامات كارمن أنها تحب تنفيذ ما تريد مهما كان متصورة نفسها أرفع شأناً وقيمة من جميع العاملين في المزرعة. ولكن لا ريب أن فيها بعض المزايا الحسنة وإلا لما تعلق أخوها بها إلى هذه الدرجة.. ثم ذكرت نفسها: ألم تنقد يوماً ما حياتها؟ لذا عليها ألا ترد الجميل بالنقد.

فجأة انشرح مادوك قضاء اليوم التالي في الإبحار، فتنهدت وهي تعلم أنها لا تفعل شيئاً أكثر منه.

- أحب ذلك مادوك.. لكن لديّ عمل، فعليّ وغاريت أن نعيل أنفسنا.

- لماذا لا تتركيه يقوم بحصته من العمل لمجرد التغيير؟

تمتمت بتعاسة:

- أنت تعرف لماذا.

- أجل.. إنما يوم واحد لن يشكل فرقاً كبيراً.

ابتسمت مستسلمة بضعف

- لا.. حسناً..

فيما بعد اصطحبها للسباحة في المسبح وهناك أعطاها درس سباحة هو لكارمن، لكن قياس كارمن كان ضعف قياسها ومع ذلك لم تستطع الاحتجاج لأن مادوك لم يسمح لها بالاعتراض. وأثناء توجههما إلى البحر التقيا بمدير مزرعته، فحدثه مادوك دون أن يتوقف ولكن أرغون توقف ليبتسم لموريتا بحرارة قائلاً

- مرحباً موريتا.

ردت بجفاء:

- مرحباً.

سألها مادوك بعد ابتعاد أرغون.

- لم أكن أعرف أنك تعرفينه.

- أكاد لا أعرفه!

- غارسيا مدير ناجح موريتا.. لكنه ليس الرجل المناسب لفتاة مثلك. لا تقولي لي إنك معجبة به؟

هزّت رأسها بحماسة آملة أن يقنعه هذا.. فقد صعُب عليها إطلاعه على إعجاب شقيقته بغارسيا.. أبلغتها غريزتها بأنها لو أطلعته لما سامحتها كارمن أبداً.. وهي إلى ذلك لا تعرف إلى أي حد بلغت علاقة كارمن به، فقد تكون مخطئة بشأنهما.

قال مادوك لها:

- طلبت أمي إقامة هذا المسبح هنا قبل وفاتها وأبي. هل أتيت إلى هنا من قبل؟

- لا دعتني كارمن للشاي ولكننا لم نقم بجولة حول المنزل.

- هل أرتك المنزل من الداخل؟

- لا.. لقد أتيت يومها لتناول الشاي، لا لأكون سائحة. ربما حسبتني غير مهتمة.

- سأريك المنزل فيما بعد.

خلعت سروالها القصير ببطء في غرفة الملابس، ثم ارتدت ثوب السباحة الذي أعطاها إياه مادوك وقد رأت ما كانت تخشاه، فمقاس كارمن يختلف عن مقاسها كثيراً.

فيما بعد استلقيا تحت أشعة الشمس على كراسي طويلة ليجفّ جسداهما. كانت المياه الباردة قد طردت الحرارة من جسدها،

ولكنها لم تفعل شيئاً إزاء اضطرابها.. فقد وجدت طوال الوقت الذي قضته في السباحة مع مادوك صعوبة في نزع نظرها عن منكبيه العريضين اللذين يضيقان إلى خصر نحيل قوي. ربما لا يعتبر مادوك وسيماً بشكل صارخ ولكن في قسمات وجهه القوة والسحر اللذين تشك في قدرة النساء على مقاومتهما.

حاولت إلهاء نفسها عنه فقالت له:

- لديك مزرعة كبيرة مادوك. ماذا تزرع فيها؟

- قصب السكر، الموز، وجوز الهند، والبن في الأعلى.

- لماذا لا تبقى هنا إذن؟ فأمامك أعمال كثيرة على هذه الأرض.

- نعم على ما أظن.

مدّ يده طارداً حشرة طائرة حطّت على ذراعها فدفعتها لمسته إلى الرغبة في أن تكون بين ذراعيه. ولكنها نهرت نفسها وراحت تصبُّ اهتمامها على الحديث.

- في المزرعة الكثير من قصب السكر.

- ما زال السكر التجارة الرئيسية، ولكن ولله الحمد أن عهد العبيد انطوى.. ولكننا ما زلنا أكبر منتجين للتبغ في العالم، وأنا مهتم بهذا شخصياً.

كانت أغصان الأشجار الاستوائية ساكنة فوقهما في هذه الهاجرة. فكل شيء حولهما حتى الفراشات والطيور هادئ.

قالت هامسة:

- أمر غريب.. ترعرعت على هذه الأرض طوال حياتي ومع ذلك لا أعرف الكثير عنها.

ابتسم:

- يسرني أن أريك إياها بنفسي.

ضحكت:

- لم أكن المنح... ثم إن لديّ عملاً عليّ الالتزام به بعد الغد.

تقدم بحركة سريعة ليجلس إلى جانبها ويدفعها جانباً بحيث أحسّت بثقله عليها وقال:

- أنت تحتاجين إلى رجل يرعاك.

ابتسمت بخبث:

- لديّ غاريت.

- أرى أنك ترعينه.

مدّ يديه ليضمها إليه، فلم تجفل، بل استكانت بين ذراعيه تلقي رأسها على كتفه، ولكنها لم تكن مستعدة لما جاش في نفسها من مشاعر جعلتها تشعر بالخوف. وكأنما براعتها برمّتها كانت تجاهد لتتخذ موقفاً ضدّ الرغبة التي تحاول السيطرة عليها..

وكأنه أحسّ بمقاومتها الصامتة، فالتفت إليها وتمتم بخشونة:

- موريا.. ما الخطب؟ هل أخفتك؟

كيف تشرح له خوفها من نفسها ومن الرغبات الغريبة غير المألوفة التي تجتاحها والتي لا تجرؤ على الاستسلام لها... هزت رأسها بهدوء وقالت:

- أجل.. أنت رحيمي! لست معتادة على هذه الخشونة.

جعلها بريق الغضب في عينيه ترتجف

- لم أكن أتصرف بخشونة، إياك أن تنكري رغبتك في عناقي. كنت ترسلين الإشارات طيلة الظهيرة. فهل كان من المفترض أن أتجاهل؟

- إنها غلطتك! أريد العودة إلى البيت. فهل تسمح بالابتعاد عني؟

لكنه لم يتحرك بل ضحك بخشونة عرفت منها أنه ما زال

غاضباً. قال لها:

- لن تذهبي إلى أي مكان قبل أن نتفق. لقد أردت مني معانقتك وقد لبيت طلبك واكتفيتِ أنت أما أنا فلم أكتفِ بعد. بل لم أصل إلى ما يقرب الاكتفاء.

اشتدّت ذراعاه حولها، فتلوّت، ولكنه شدّها بطريقة لم تستطع معها الحراك، حاولت متابعة مقاومته، ولكن ضغط ذراعيه وحركات يديه سلبها القوة. فأسرعت تعقد ذراعيها حول عنقه تتعلق به.

في هذه المرة ارتجفت من السعادة لا من الخوف، لذا لم تحاول منع ذراعيها عن الارتفاع إلى عنقه... ولكن، ما إن فعلت حتى توقف، ينظر إليها وأنفاسه مضطربة. فعاد إليها الخوف. قالت بصوت متوسل متهدج عوضاً عن أن يكون غاضباً:

- عادوك... أرجوك.

رعان ما تغيرت تعابير وجهه فبدا في عينيه الرقة:

- حبيبتي... لم أقصد أذيتك.

همست بتعاسة:

- أنا آسفة.

تأوه:

- أنت بريئة جداً. أحياناً، أتمنى لو كنت أكثر خبرة.

كرّرت والدموع تغطي فجأة وجنتيها:

- آسفة! لا أعتقد أنك تريد رؤيتي ثانية.

قبّل دموعها، وفي عينيه دفء:

- لا تكوني حمقاء.. أريد رؤيتك طبعاً.

- لكنك قلت إنك تتمنى لو كنت أكثر خبرة.

- أريدك.. يجب أن تعرفي هذا.. يوماً ما ستكونين لي. لا

أريد إخافتك.. ولكنني أرى أن من حقك أن أنذرك مسبقاً.

تسمّرت بين ذراعيه عاجزة عن الحراك فقد أدركت فجأة أنها أيضاً تريده، مع أنها لا تستطيع وصف ما تريد بالكلمات كما فعل هو بسهولة.. ارتجفت على الرغم من الحرارة، فهي وإن كانت تريد أن تكون له، تطلب في المقابل أكثر مما هو مستعد لإعطائه. لم يقل لها إنه يحبها ولا تعلم إن كانت تحبه، ولكنها أدركت فجأة أنها لن تهب شيئاً لأي رجل حتى تتأكد من حبهما. وهذا ما تريد بعض الوقت للتفكير فيه..

فهم مادوك ما يدور في رأسها أكثر مما ظنت.. فقال بنعومة:

- لن تندمي معي مورينا.. أظنني قادراً على إرضاء جميع احتياجاتك.

همست:

- يجب أن أفكر في الموضوع.

- لك ما تريدين من وقت.

تركها ووقف وكأنه لا يثق بنفسه، ثم أسرع إلى الغوص في المسبح.

مادوك لطيف للغاية لا يضغط عليها أبداً وهو إلى ذلك يسليها ويقدم لها الآن أروع عشاء، ومن سوء الأخلاق أن تجلس وكأنها الروبوت طوال السهرة! عليها حين تعود إلى المنزل التفكير ملياً في حقيقة مشاعرها.

ظلّ مادوك معها مرحاً فجال بها في البيت مازحاً حتى وصلا إلى جناحه، ففتح الباب على مصراعيه ووقف يراقبها متسائلاً:

- ما رأيك؟

كانت غرفته كسائر الغرف التي رأتها كبيرة، ولكنها تختلف عن غيرها لأنه فيها تبرز شخصيته وحضوره. أحنت بجفاف فمها وهي

تنظر إلى ما حولها، وشعرت بالمشاعر التي حسبت أنها سيطرت عليها تعذبها، فكان أن أجبرت نفسها على الرد دون تفكير:

- وما رأي الفتيات الأخريات بها؟

- لم أسألهن.. لم يكن لديّ الوقت لأسأل.

قد يعني هذا أشياء عديدة، وما من شك أنها تستحق ألم التفكير الذي رماها فيه.. أراد منها أن تفكر في ما إذا كان دائماً على عجلة من أمره مع الأخريات اللاتي لا يكترث برأيهن فهمست ببؤس:

- ما كان يجب أن أسأل هذا السؤال.. أليس كذلك؟

عندما رأى عيناها تغرورقان بالدموع تأوه مادّاً يده بسرعة يضمّها إليه.

- يا إلهي.. يا حبي الصغير.. أنا آسف! لم يكن ما سألته بغيضاً ولكن طبعي قاسٍ جلف.

قنعت ورضيت أن تكون بين ذراعيه.. فضمّته بشدة متنهدة كانت تقريباً تحسُّ بالحاجة والتوتر يجتاحانها، وبالشوق يستعر في جسده.. فتنفست عميقاً ورفعت رأسها لتتأمله بعينين تشتعلان بمشاعر لم تحاول إخفاءها:

- مادوك.! قبّلني الآن لو كنت تحبني.

لم تكن مهيئة للنظرة التي لمعت في عينيه وانعكست على وجهه.. قال وفمه يرتجف:

- هل تشترطين عليّ.. مورينا؟

لم تفهم ما يقول، فاتسعت عيناها أكثر:

- لا... بالطبع لا...

حدّق فيها لحظات طويلة وعضلات وجهه مشدودة، وكأنه لم يكبح نفسه بمكابح فولاذية ولكنه لم يلبث أن تنهد بصمت دافعاً

إياها عنه. قائلاً باقتضاب ووقار:

ـ أفضّل الانتظار حتى تفهمي حقاً ما تقدمينه لي. وحتى تكوني مستعدة لتقديم نفسك دون شروط.

* * *

٤ ـ العاصفة تضرب مرتين

كان الوقت متأخراً عندما أرجعها مادوك في الأمسية التالية. أمضيا يوماً رائعاً، يوماً يتمنى المرء لو يبقى إلى الأبد.. ولكنه سرعان ما مضى فأحست بالانزعاج، فما من شيء يدوم إلى الأبد.. ولكن أمامهما أيام أخرى، قد تكون غنية بسحر يفوق سحر هذا اليوم الذي ليس آخر يوم تخرج فيه معه.

بينما كانت تراقب دنوّ الساحل السريع، حاولت إبهاج مزاجها بالتركيز على الساعات القليلة الماضية، وأدركت الآن ووجنتاها تحترقان، أنها لم تكن لتندم على كل ما قالت له.

تقدم إلى غرفة القيادة ليطفىء اندفاع اليخت، وكأنه غير مستعجل أبداً لإنهاء هذا اليوم. ثم تقدم إلى حيث تجلس فجلس قربها يلفّ ذراعه حول قدّها الرشيق ليقربها منه.

ـ سعيدة؟

على الرغم من ارتجاف جسدها، تمكنت من الابتسام مؤكدة له أنها سعيدة، وهذا صحيح. فمنذ ساعات لم تكن واثقة مما تريد. ربما كانت مستعجلة كثيراً وربما كان الوقت والمكان غير مناسبين، لكن ما تأكدت منه نهائياً هو حبها له. جذب رأسها إليه:

ـ سأمهلك الوقت اللازم مورينا.. أنت صغيرة جداً لذا من السهل أن تنهوري.. من كان في مثل سني قادر على اتخاذ القرار

المناسب.. أما من هو في مثل سنك فغير قادر. لا أريد أن تُلزمي نفسك بشيء قد تندمين عليه.. منذ مساء الأمس وأنا أفكر وأنا آسف لأنني حاولت استعجالك.

ردّت بثورة عارمة:

- كم يجب أن أبلغ من العمر حتى تصدق أنني أعرف ما أريد؟

ضحك:

- ما رأيك بالخامسة والعشرين، تقريباً؟ هذا هو السن المعقول عندي.

شهقت:

- لست جاداً؟

طار الفرح من عينيه:

- لا تغريني!

- ما أشد رغبتي في ذلك!

هزّها بلطف:

- لكنني أريد أن أمهلك بعض الوقت حبيبتي.. وعليك أن تستغلي هذه الفرصة ما دامت حالتي العقلية سليمة. فما لديّ من سلطة قد لا تدوم طويلاً.

- هل أراك غداً؟

أنزل يديه عن كتفيها على مضض ثم وقف مركزاً اهتمامه على قيادة اليخت.

- لا يجب أن أرى شخصاً ما في سان خوان.. حتى الموعد سابقاً. لولا ارتباطي طوال الوقت بالعمل لاصطحبتك فأنا أرفض أن تتجولي في المدينة وحدك.

كان الظلام قد حلّ حين أوصلها إلى المنزل. ولأنها كانت تحسّ بالارتباك في أعمق أعماقها لم تشأ أن يتركها فقد كان لديها

حافز خفي، بائس يدفعها إلى تأخيره مهما كان الثمن. لكنه رفض عرضها بالدخول لتناول القهوة. وسمعته يقول بخشونة وكأنه مرغم:

- قد أزورك في الغد أثناء عودتي إلى منزلي هذا إن لم أتأخر.

زارتها كارمن في الصباح التالي. كانت في مرسمها تحاول التعويض عن الوقت الضائع حين قرعت كارمن الباب ودفعته.

- آسفة.. لكن مادوك حدثني عن عملك فأصبت بالفضول.

راحت تتأمل كارمن باهتمام رسوماتها وهي مبتسمة، ولكن موريتا حارت في أمر نفسها فهي لا تعرف لماذا تشعر بالقلق كلما كانت مع هذه الفتاة.

- ليس هناك الكثير للمشاهدة كما أخشى.

- لا بأس في هذا.

والتقطت كارمن رسمة فرحة الألوان هي عبارة عن منظر مرجاني تبدو فيه الأسماك رائعة، لكنها سرعان ما هزت كتفيها دون اكتراث وأعادتها إلى مكانها قائلة:

- ليس لديّ ما أفعله فعندما يكون مادوك موجوداً لا أجرؤ على محادثة أرغون.

ردت موريتا بحذر:

- لكنك ناضجة تستطيعين فعل ما تريدين.

ردت بحزن:

- هذا ما يتصوره المرء. لكن قولي هذه الكلمات لأخي العزيز إن كنت تجرؤين! إنه لسوء الحظ الممسك بمفتاح خزانة المال

سرعان ما شعرت موريتا بالسخط من سخرية كارمن الواضحة، فاعترضت بالقول:

- إنه يتحمل عبء المسؤولية كلها ويعمل جاهداً

- أحياناً، ليس دائماً.. لقد ذهب هذا الصباح لحضور سباق الخيل وللمراهنة في سان خوان.. لقد دعته سيدة يعرفها إلى هناك، وهذا يعني أنه سيقضي وقتاً ممتعاً معها. كان بإمكانه أن يقوم ببعض العمل ليخفف عن عماله ولكنه عوضاً عن ذلك ترك لأرغون ما يشغله طوال الأسبوع!

بدأت مورينا توضيب طاولتها التي لا تحتاج إلى توضيب في الواقع.. وفيما هي ترتبها أوقعت علبة طلاء عليها فاستغلت الوضع لتدبر ظهرها إلى كارمن. فقد كانت تحسّ بغثيان مؤلم يبلغ حنجرتها... لماذا كذب مادوك عليها؟ قد تكون كارمن مخطئة، ولكنها ليست سعيدة هذا الصباح ويبدو أنها لا تعرف شيئاً عن علاقتها بمادوك. عضّت مورينا على شفتها، حتى أحست بالألم وقالت بجفاء، وظهرها إلى كارمن:

- قد يغادر أخوك الجزيرة منتقلاً إلى بريطانيا.

تمتمت كارمن:

- هذا عزائي الوحيد. إن تينا لا تنفك تتصل به، ولا أظنه قادراً على التأخر عنها أكثر. أخبرني منذ قليل أنه إن لم يعد، فقد تحضر هي إلى الجزيرة ولكنه لا يريد أن ترى المنزل قبل إعادة ديكوره وترتيبه.

كان صوت مورينا أجشاً حين وجدته أخيراً:

- ومن هي.. تينا؟

- خطيبته.. عما قريباً مخطوبان. كانا سيتزوجان لولا اضطرارها إلى السفر لحضور زفاف ابنة عمها في كندا.. وقد غضب مادوك طبعاً وكادا يفترقان لهذا السبب، ولكن بعد ما سمعته يقول ما قاله تلك الليلة تبين لي أنه ما زال على حبها.

وصل عذابها عندما ذكرت هذه النقطة إلى ذروته.

كانت وهي مضطجعة على السرير تتذكر ستين خلتا، فاستلقت فوق السرير على معدتها متأوهة تحاول السيطرة على أفكارها.. فقد أعادت عودة مادوك الذكرى إليها مع أنها لا تريد أن تتذكر...

لم تشأ تذكّر ما حدث ذلك اليوم حينما تخلت عن إدعاء العمل وخرجت دون أن تقول لغاريت شيئاً لتجلس على قمة صخرية مرتفعة على حافة مزرعة مادوك الشرقية على تقاطع الطرق التي تؤدي إلى الجزيرة وإلى منزلها ومنزله. لم تكن تريد أن يحدها في المنزل بعد عودته لأنها كانت تشعر بأنها خنقاء.

حاولت ألا تتذكر اقتراب سيارة أرغون قادمة من جهة الجنوب، وانحطاطها على مفترق الطريق المؤدية إلى المزرعة. كانت كارمن تجلس معه في السيارة التي أوقفاها في مكان لا يبعد عنها سوى مئة متر. بعد قليل أدارت رأسها وهي تشعر بأنها تشاهد فيلم رعب، فقد رأت مادوك ينحني في مفرق منزلها. من الواضح أنه غادر المدينة باكراً.

والغريب في الأمر أنها على الرغم من حالتها النفسية فكرت في كارمن. قد يمر أشخاص آخرون بما أمامهم مرور الكرام، ولكن لو شاهد مادوك سيارة أرغون متوقفة فسيسارع إلى الاستفسار كادت تتخيل غضبه لو ضبط شقيقته وأرغون معاً.. وهكذا انطلقت تعدو باتجاه كارمن، وهذا أقل ما يمكنها فعله وداً لجميل كارمن التي أنقذت حياتها.

وصلت إلى الفسحة التي تقف فيها السيارة وهي لا تشعر بالمرارة التي تسيّرها، ففتحت باب السيارة وإذا بها تفاجأ بكارمن في أحضانه... ثار غضب كارمن حتى شرحت لها مورينا الموقف، عندها عجزت عن الحراك برهة لكنها لم تلبث أن قفزت من السيارة دافعة مورينا إلى الداخل صائحة:

- عليك البقاء هنا حتى أبتعد.

ما تزال موريتا تذكر كيف صعقت ولكن هذا لم يكن أسوأ ما حدث، فقد أمسك بها أرغون وأصمت احتجاجها بقمه الكريه وتمتم ساخراً:

- علينا القيام بعمل متقن من أجل كارمن.

منذ ذلك الوقت، والكوابيس تنتابها كلما تذكرت وقوف سيارة مادوك خلف سيارة أرغون أو كلما تذكرت كيف انتزعها من بين ذراعي أرغون، وصوته القاسي يأمر أرغون أن يقابله في مكتبه حالاً. بعد ذهاب أرغون قال لها مادوك بلهجة موارية ما يظنه بها.. دعاها بالساقطة هذا عدا صفات أخرى لا تريد تذكرها. ثم أوضح لها أنه لن يراها ثانية، وأنه عائد إلى لندن بعد يومين مع شقيقته.

لم تستوعب نتائج تصرفها الأرعن إلا فيما بعد، وحين استوعبت ما جنته انهارت. كانت قد تفهمت أسباب ثورة مادوك، لأن تصرفها يستحق ما تلقته من توبيخ.. ولكن عدم قدرتها على فضح أمر كارمن كان يؤلمها.

في اليوم التالي كان عليها أن تقابل كارمن لترى ما إذا كان بالإمكان شرح بعض الحقيقة أمام أخيها، فلا يمكنها على الرغم مما فعله أن تتركه يغادر وهو مسيء الظن بها إلى هذا الحد. كانت تشعر بالألم والسقم أن يحسبها قادرة على الخيانة وعلى إقامة علاقات متعددة.

أن تضرب الكارثة مرتين لصدفة رهيبة. فبينما هي في منتصف الدرب إلى المزرعة، وجدت سيارة كارمن محطمة على نتوء صخري قرب الطريق وكارمن عالقة فيها. كانت في المقعد الثاني قرب السائق، غير مصابة كما يظهر ولكن لا وجود للسائق. رفعت كارمن عينيها المذعورتين إلى وجه موريناالوجل.

- موريتا.. هلاّ ذهبت في طلب العون... قولي إنك كنت تقودين السيارة..!

ترددت موريتا حتى شرحت لها كارمن أن مادوك طرد أرغون من العمل، وأنهما كانا يهربان معاً.. أكملت:

- ساقاي عالقتان ولكنني لا أشعر بالألم. أخشى إن عرف بأننا كنا هاربين وأن أرغون سائق السيارة أن يرميه خارج الجزيرة.. نحن متحابان موريتا!

فيما بعد تساءلت موريتا كيف لرجل أن يتخلى عن الفتاة التي يحبها كما فعل أرغون غارسيا.. ولكن هذا لم يتضح لعقلها المشتت على الفور، فقد كانت منفعلة تريد أن تهدىء من روع كارمن لذا وافقت على فعل ما تريده كارمن ولكن قبل أن تتحرك قدمت شاحنة من المزرعة سارع سائقها إلى طلب المساعدة، فحضر مادوك حالاً، لكنه كان أكثر انشغالاً بتحرير ساقي كارمن من أن يقول كلمة لموريتا.

كانت كارمن مصابة أكثر مما بدت للوهلة الأولى، فألقى مادوك التبعة على موريتا قبل أن ينقل أخته إلى سان خوان للمعالجة، ومن ثمّ إلى لندن، لكن قبل أن يسافر زار موريتا في منزلها قائلاً بتجهم إنه يريد محادثتها. كانت تجلس حيث الآن تماماً تصغي إلى كلماته والتي يستحيل نسيانها... يومذاك قال لو أنها شخص آخر للاحقها قضائياً بتهمة القيادة المشهورة، فكارمن قد لا تشفى تماماً وعليها تقع المسؤولية.

ولكن هل كانت منقاسي أكثر مما منقاسيه الآن لو عرف الحقيقة؟ والسؤال الأهم هل تستطيع أن تبوح سرّ كارمن وأرغون الذي لا يعرفه أحد سواها؟ إنه سرّ ثقيل لا تستطيع دون البوح به أن تبرىء نفسها من عيني مادوك ولكن هل كان سيصدقها؟ إنها تشك

في ذلك خاصة وقد صاحت كارمن ما إن رأت أخاها بأن مورينا السائقة، وبات من المستحيل برهنة العكس.

كان على وشك الابتعاد حين انطلقت من أعماق نفسها صيحة ألم.

ـ مادوك.. أتكرهني إلى هذا الحد؟

أمسكها بشراسة، وهزّها حتى كادت يداه تقسمانها إلى قسمين، ثم دفعها إليه بشراسة لم تستطع معها النفوذ بكلمة.

ارتجفت مورينا على الرمال، والألم يغشى عينيها بعد استيلاء ألم الذكرى على أحاسيسها. راحت تراقب الفجر يزغ ببطء معلناً عن قدوم الصباح، فتساءلت ماذا سيحدث بعد؟ لقد عاد مادوك الذي لا تعرف على الرغم من تتبع والدها أخباره ما إذا كان متزوجاً. أما أرغون، فلا أخبار عنه. لقد اختفى بكل بساطة وحلّ محله مدير جديد اسمه ليمن ديزمان تسير الأمور معه حسبما تعرف على خير حال.

مضى يومان كانا بالنسبة لمورينا صمتاً متوتراً جافاها فيهما النوم وراحة البال.

عندما بدأت تظنّ أنه قرر نسيانها، أرسل لها سيارة تقلّها إلى منزله لزيارة شقيقته... وقع غاريت حاجبيه دهشاً مظهراً سلطته التي نادراً ما يظهرها، فأمر الرجل الذي حمل الرسالة أن ينتظر. ثم التفت إلى مورينا:

ـ هل تريدين الذهاب؟

ابتسمت تطمئنه على الرغم من ارتجاف يديها:

ـ سأكون بخير غاريت.. كما إنني أريد رؤية كارمن.

كان بإمكانها الرفض كما لمّح والدها بطريقة غير مباشرة، فما من أحد يجبرها لكنها أصرّت على الذهاب علماً أنها شعرت

بالذنب لاذعانها أمام والدها رغبتها في الذهاب من أجل كارمن. نعم لا تنكر أنها تشعر بالأسى على الفتاة لكن ذلك لم يجعلها تسامحها على استغلالها دون أن تشعر بالخجل. إن مَن ترغب في رؤيته في الواقع هو مادوك، فبعد ما رأته في النادي بالأمس القريب وجدت للأسف أنها ما تزال مهتمة به ولكنها عادت فأوهمت نفسها بأنها ما إن تراه ثانية حتى تفقد اهتمامها الواهم هذا. فقد شوّهت دون شك الصدمة والمفاجأة قدرتها على التفكير السوي.

عندما وصلت إلى البقعة التي وقعت فيها الحادثة، أغمضت مورينا عينيها ولم تفتحهما حتى توقفت السيارة أمام باب المزرعة التي لم تتغير. كان المنزل على حاله، كبيراً، واسعاً، حوله هالة من الإهمال. ومع ذلك أعجبها، كما حدث دائماً، وعلمت أنه لو أتيحت لها الفرصة لعاشت فيه بسعادة.

المنزل لم يتغير نعم أما مادوك فقد تغير كثيراً. كانت غارقة في تأمل ما يحيط بها بحيث لم تلاحظ نزوله عن الدرج العريض الحجري للقائها. حينما سمعت وقع خطواته التفتت دهشة ولكن ما ألمها أنها وجدت أن انطباعها السابق لم يكن مخطئاً.

شعرت على الرغم من ارتباكها بالعداء القائم بينهما، ذاك العداء الذي مدّ مخالبه إليها، فشدّ الخناق على أعصابها كيد عملاقة لم تستطع معها التنفس تقريباً. وهذا ما لم تختبر مثله من قبل.. كانت تشعر كأن خنجراً يتلوّى في داخلها، ففكرت بشوق في الدفء والأحاسيس الرقيقة التي شعرت بها في الأيام الخوالي. لقد قدر مادوك دائماً على إثارتها لكنها لا تتذكر شيئاً أشرس من العواطف التي تجتاحها الآن.

حين أمسك ذراعها، وجذبها بسرعة إلى الداخل بطريقة غير لطيفة حاولت التظاهر بالهدوء. فهي لم تكن تتوقع رؤيته بهذه

السرعة. تصاعدت خفقات قلبها المضطربة، ووجدت أنها غير مستريحة وغير واثقة مما إذا كان عليها أن تكون سعيدة أم آسفة. ودّت لو أمهلها بعض الوقت لتتماسك بشكل ملائم قبل أن يظهر. ثم كسر الصمت وكأن لا صمت بينهما أبداً، صوته ووجهه باردان:

- تعالي لتقابلي الجميع؟

- ألديك زوار؟

- لا تذعري.. لن يؤذيك بضعة ضيوف.

- كان يجب أن تخبرني!

- وما الفرق؟

أحست بمرارة وهي تنظر إلى تنورتها القطنية الباهتة اللون التي ليس لديها ما هو أفضل منها لارتدائه. لو عرفت أنّ هناك ضيوفاً، عدا شقيقته، لرفضت المجيء، وكما قال لها والدها، لا أحد يستطيع إجبارها على المجيء!

حين لم ترد، شدّ مادوك قبضته على ذراعها، ودفعها متعمداً أمامه، قائلاً بجفاء:

- فلندخل.

كان عدة أشخاص مجتمعين في غرفة الجلوس، كانت المرة الأخيرة التي دخلت فيها إلى هذه الغرفة يوم تناولت الشاي فيها. عند هذه الذكرى زجرت نفسها بسبب تعلقها بالماضي، فالماضي فات ومات ولن يغير شيء من الواقع.

كانت كارمن جالسة، ولكن ما إن دخلت موريتا ومادوك الغرفة حتى أسرعت إلى جانبهما. عندما لاحظت موريتا تحركاتها الخرقاء، تساءلت لماذا تزعج نفسها، لكنها سرعان ما عرفت السبب غريزياً، كانت تسير إليهما وهي تمرح فيدا واضحاً أن إحدى ساقيها أقصر من الأخرى قليلاً، ولا شكل لها عند الكاحل فأدركت

موريتا أن كارمن تتوسل بتحركها هذا عطفها وشفقتها. كانت تُظهر وبوضوح لها مدى تشوّهها لئلا تفضح موريتا أمرها.

ولكن ما أذهل موريتا امتناع كارمن عن مصافحتها حينما مدّت إليها يدها فشهقت بحدة بعد ما فهمت خبث دوافع كارمن التي كانت تحاول بتصرفها هذا إظهار عدم القدرة على مصافحة الفتاة المسؤولة عن الحادثة التي أنزلت فيها جرحاً بليغاً. وسمعت مادوك يتمتم بخشونة في أذنها:

- لقد سرقتِ منها حبيبها، وشوهتها مدى الحياة.. فماذا تنتظرين؟

عندما كان يقود كارمن إلى كرسيها أحست موريتا بأنها أصبحت باردة كالثلج، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى موريتا التي راح يقدّمها إلى الآخرين. كان هناك السيدة أشدون عمته، التي أتت معهما من إنكلترا لتساعد كارمن، ورجل وامرأة من سان خوان، عرّف عنهما تحت اسم موري روسيل وشقيقته كارينا.

لماذا دعاها مادوك اليوم؟ إنها لا تفهم. لكن السيدة أشدون وموري روسيل بدوا طيبين ومسرورين بالتعرف إليها أما الآنسة روسيل فتشبهت بكارمن متجاهلة وجود موريتا. أهذه هي الفتاة التي كان مادوك يصطحبها إلى سباق الخيل في سان خوان، حين كان من المفترض به أن يعمل؟ بدا لها الاسم مألوفاً. ليست صغيرة كثيراً ولكنها جميلة ذات حنكة وثقافة اعتاد عليهما ويقدرهما على ما يبدو.

بعدما ابتسمت له بعذوبة، عادت كارينا لتنضم إلى كارمن القابعة في الجانب الآخر من الغرفة.. لكن قبل أن تذهب سمحت لعينيها بالتجول بازدراء على تنورة موريتا الشاحبة اللون، مما لم يترك مجالاً للشك في رأيها بها!

راحت تتمنى موريتا أكثر فأكثر لو امتنعت عن الحضور. وحين سكبت لها السيدة أشدون فنجان شاي سارعت إلى الابتسام شاكرة، وطلبت منها السيدة الجلوس فاختارت موريتا مكاناً معتماً تحدق به الستائر. كانت تعلم أن السيدة لم تقصد أن تبتعد هكذا، لكن بدا لها من المهم وضع أكبر مسافة بينها وبين مادوك. وبينها وبين كارمن التي لا تريدها هنا كما هو واضح ثم ارتأت موريتا المغادرة بدون إثارة الشكوك فكل ما في هذا المنزل يزعجها أكثر مما تصورت، لذا لم تستطع منع نفسها عن الارتجاف.

جاء مادوك ليجلس قربها، وعندما لامست ساقه ساقها، تمنت لو اختارت كرسياً عوضاً عن الأريكة. لم تتمكن مع ذلك من التغاضي عن النظرات الفضولية الباردة التي كانت ترمقها بها كاريا، وظنت أن الفتاة منزعجة، مع أنها ما كانت لتنزعج لو لاحظت نظره الكراهية المطلة من عيني مادوك. سمعت ما كان يقوله لها

- أرأيتِ كيف أصبحت كارمن؟

وضعت فنجان الشاي من يدها، ودسّت يديها تحتها لئلا يلاحظ ارتجافها

- إنه عرجها بالغ

رد بصوت ملؤه الغضب

- أهذا كل ما ستتنازلين لقوله؟

- يمكنها على الأقل التجول

- صحيح لكنها ما تزال متألمة.

ألا تتألم جميعاً؟

صاح بصوت منخفض حاد

- موريتا! أكاد لا أصدق أنك عديمة الإحساس إلى هذا الحد،

ولكن لولا هذا لما خطفتِ غارسيا منها أصلاً، ولما تجرأت على طلب قيادة سيارتها.

لم يؤلم موريتا معرفتها أن كارمن لم تعترف له بالحقيقة بقدر ما آلمها كرهه لها وعدم ثقته بها. مع ذلك فماذا تستطيع أن تفعل؟ ردت بتهور، لكن لقول الحقيقة:

- لم يكن بعجبك أرغون كثيراً.. ولولا الحادثة لأصبح صهرك.

- ما هذا بموضوعنا؟ كم عشيق أصبح لديك منذ ذلك اليوم؟

- لن تصدق لو قلت لا أحد أبداً.

تفصد العرق من جبهته:

- لست غبياً إلى هذه الدرجة.

إنه متعلق كثيراً بشقيقته دون ريب وكيف لا وهو رجل يهتم كثيراً بعائلته. فأشدون على ما يبدو تحبه، وهذا يشير إلى أن لروابط العائلة قيمة في نفسها. أدارت رأسها نحوه وقالت ببرود:

- أود العودة إلى منزلي خاصة وأنت تمقت وجودي.

حين حاولت الوقوف امتدت يد بقوة فجذبتها إليه:

- أوه.. لا.. لن تذهبي! لقد انتهى عهدك بالخداع يا طفلتي! ستبقين هنا لمساعدة كارمن على إحياء اهتمامها بالحياة، أو بمعنى آخر على استعادة ثقتها بالبشر. وأنا سأتأكد بنفسي أنك ستنفذين هذا!

هل هناك قدر أسوأ من هذا؟ ارتجفت موريتا وهي تحس بنفسها جالسة فوقه تقريباً فقاومت للتحرر من يديه المتوحشتين، خاصة وأن في الغرفة من يراقبهما وإن بدرجات متفاوتة من الاهتمام.

لاحظ دون ريب أنهما مراقبان ولكن هذه المراقبة لم تزعجه،

بل ظلّ ممسكاً بها ولم يبعدها عنه إلا بضع إنشات.

كانت يده تمسكها بقوة فعلمت أن آثار أصابعه ستنطبع على بشرتها في الصباح... تمتمت تقول له في محاولة لإزعاجه:

- وماذا عن عشيقتك التي هناك؟ ألا تعلم أن ما تفعله معي الآن قد يدفعها إلى التساؤل فالغضب؟

- أما زالت مخيلتك خصبة.. تخيلت مرة أني أحبك، وكان ذلك قد سلاني يوم ذاك ولكنه ما عاد يسليني.

لم تستطع ربط العلاقة فما دخل كارينا روسيل بما كان بينها وبينه؟ ثم لا حاجة إلى أن يقول لها إنه كان يتسلى، فلو أحبها فعلاً لما استطاع إدانتها بسهولة.

ردت بصوت ملؤه القبول:

- أعرف تمام المعرفة أنك لم تكن تهتم بي فعلياً. فلقد سمعت.. سمعنا أنك قد تكون متزوجاً في الوقت الحالي.

- لا.. لم أتزوج... انظري إليّ مورينا!

حاولت إنكار شيء تغيّر في أعماقها بسرعة وشهقت:

- ماذا هناك؟

حاولت مقاومته وإنكار ما تحس به، لكنها سرعان ما أخذت ترتجف وهمست بيأس.

- يا إلهي!

ضحك بحدة:

- ما زلت تشعرين بالمشاعر ذاتها إذن؟ ربما ليس بيننا حب ولكن كائناً ما يكون، فقد تأخر كثيراً في أن يموت.. وربما لا طريقة للتحرر منه.

لم تفهم تماماً ما يقصد ولا تريد أن تفهم لذا ردّت بخشونة:

- أنت مجنون!

- ما المشكلة إن أضيف إلى عدد العاشقين عاشقاً آخر. تأكدي أنه لن يخيب أملك.

ذعرت عندما سمعت نفسها ترد عليه بالحدة ذاتها:

- ألم تفكر أنني لو وجدت من لا يخيب أملي لتعلقت به؟

بدا وكأنه راغب في قتلها. قال ساخراً:

- لا تقلقي.. لن أتقدم بطلب فوري لأتخذ هذا المركز

شعرت بأنها ترتجف بشكل واضح فتضرّجت وجنتاها وكان عليها أن تشيح بصرها عنه لتمنع نفسها عن رؤيته. وعلى الرغم من حرجها مما قالته كانت تشعر بجاذبيته الخطرة مشاعرها الحائمة. ألا يمكن للإنسان أن ينسى؟ تنهدت تفكر في حبها الذي كان مضيعة للوقت. سألته:

- أنت تكرهني؟

• • •

٥ ـ في المصيدة

ـ ليست الكراهية الكلمة المناسبة!

لمعت عيناه الخضراوان ببرود، فتراجعت مورينا. إنه بكل تأكيد يعرف كيف يجرح ويؤلم، فكل كلمة يقولها تنفرز كالخنجر في قلبها. إنها لا تذكره أبداً هكذا وربما لولا لطفه الشديد منذ سنتين لما لاحظت هذا الفرق الآن.

قبل أن تفكر في ردّ لا يكون طائشاً كسابقه تقدم موري روسيل غير آبهٍ أو خائف من نظرة مادوك الرادعة التي كان من الممكن أن ترهب أي رجل آخر. نظر موري إلى مورينا وهو يتحدث إليه:

ـ لا يعقل أن تحتكر هذه السيدة الجميلة لنفسك فقط.

ابتسم لمورينا وأكمل:

ـ أتمانعين لو انضممت إليكما؟

كان أصغر عمراً من شقيقته، في عينيه بريق لم تلاحظه حين صافحها. نعم لم تكن واثقة إن كان يعجبها هذا البريق ومع ذلك هزّت رأسها له وردت على ابتسامته. فقد أتى لينقذها في الوقت الذي كادت فيه تجهش بالبكاء بسبب تعليقات مادوك الساخرة.

لم يكن من السهل استرضاء مادوك الذي أغضبه هذا التدخل، ولكنه لم يستطع فعل أي شيء لأن موري ضيفه إلا أن هذا لم يمنع الدببات الغاضبة الصامتة المتيقظة من

هزّت كتفها بلا مبالاة ثم وجهت اهتمامها إلى موري روسيل:

ـ لا أمانع، إنما كنت أوشك على التوجه إلى كارمن لمحادثتها.

وقف مادوك بدون سابق إنذار يجرّها معه هازاً رأسه لموري إلى المقعد:

ـ استرح على المقعد موري.

وجدت مورينا بعد ساعة شاقة أنها قادرة على طلب العودة إلى المنزل. أمر مادوك السائق أن يوصلها، ورافقها إلى الخارج.. لم تكد كارمن تتحدث إليها فعرفت مورينا أنها تتصرف كالنعامة دافنة رأسها في التراب على أمل ألا ترى مورينا ثانية. وقد أخطأ مادوك عندما ظنّ أنها بحاجة لرفقة مورينا، فكارمن لا تشاركه الرأي أبداً

صاح مادوك بها بغيظ وهما في الردهة:

ـ ابتعدي عن موري!

ـ لن أصغي إلى جنونك الرهيب! فأنا بهذا أضيع وقتي!

ـ أتظنين أنني لم ألاحظ الإشارات الخفية التي كنت ترسلينها له؟

ـ أنت مجنون...

قاطعها:

ـ إن تكرارك هذا النعت لممل. اصطحبت موري من أجل كارمن لا من أجلك، فقد نصبتُ بعض الاهتمام عليه لذلك كما قلت لك.. «ابتعدي عنه!»

كان يجب أن يضرب بسبب عجرفته المهينة. حدّقت مورينا فيه منزعجة انزعاجاً لا تقوى معه على أن تكون حذرة.

ـ يجب أن يكون هذا الأمر مشتركاً! لا تستطيع أن تلفّ رجلاً في ورق لتاع وتقدمه إلى امرأة كهدية، فما الرجل زوج أقراط

لا تفهم لماذا ذكرت الأقراط بهذه الشراسة، فهي بقولها هذا تشير إلى القرطين اللذين أهداهما إليها يوماً. ربما كان عقلها الباطن يردّ له الضربة بمعنى، محاولاً إيلامه بقدر ما يؤلمها. لم يحاول إخفاء الغضب المتجدد في عينيه:

- ماذا فعلت بالقرطين؟

تورّد وجهها، فلم تكن قبل أن يرحل تخلعهما أبداً، أما الآن فهي تضعهما تحت وسادتها لتنظر إليهما عدة مرات خلال اليوم..

ردت كاذبة:

- بعتهما.

- ماذا؟

- سمعتني.

- أيتها اللصة الحقيرة... إنهما ملك عائلتي!

بدا أنه سيزعج بسبب وجود طرف ثالث هو سائق السيارة، ولكنها استغلت هذا الوضع فسارعت إلى ركوب السيارة، لكن غضبه انتقل إلى أصابع فولاذية كانت تمسك بذراعها بطريقة مؤلمة، وهو أمر قد اعتادت عليه. قال لها هامساً من بين أسنانه:

- سأراك بعد يوم أو يومين، حين أشعر أن لي رغبة في خنقك!

عاد غاريت يتصرف بغرابة مرة أخرى.. سافر إلى سان خوان، مدعياً أن لديه عملاً هناك، ولم يسمح لموورينا بمرافقته.. أما السبب الذي دفعه إلى السفر فحيّرها، لكنه لم يزعجها كثيراً، بل جعلها الهدوء الذي يتحلى به منذ عودته تشك في سرٍّ ما يخفيه عنها.

في إحدى الأمسيات، وبعد العشاء، قامت بنزهة طويلة، فاستمرار صمت غاريت بدأ يزيد إلى تعاستها العميقة انزعاجاً وهذا

ما دفعها إلى الخروج من المنزل.. وأضف إلى هذا أن باميلا زارتها لتطمئن على حالها بعد الوعكة التي ألمّت بها في النادي. فاستغلت باميلا الفرصة لتقول لها، إنها قررت بعد انتهاء موسم السياحة أن تأخذ عطلة، وأن تقيم المعرض.

لم تكن موورينا لتحسد باميلا على عطلة، فلا تذكر يوماً أنها أخذت عطلة لذا هي تستحقها. لكن ما أقلق موورينا أنه لن يكون لها إيراد مالي حتى عودة باميلا من عطلتها. لم تكن موورينا تعرف ما سيحدث في المستقبل، ولكن باميلا لمّحت إلى زواجها من ريتشارد والسفر إلى أوروبا معه. أرادت موورينا أن تقترض بعض المال من باميلا لكن كبرياءها حالت دون ذلك.

غرقت موورينا في أفكارها البائسة فتأخرت عن العودة إلى المنزل، وحين عادت وجدت مادوك يتحدث إلى أبيها.

لم تكن قد رأته منذ ذلك المساء الذي تخاصما فيه، ولم ير كارمن كذلك، أو الأخوين روسيل... ولأنها تستطيع قراءة أفكار كارمن ككتاب مفتوح ولأن كارمن لم تخبر أخاها الحقيقة عن الحادثة أو عن أرغون غارسيا لن يكون هناك فائدة من قول شيء له الآن

وحتى تكون منصفة بحق كارمن فكرت موورينا بأن كارمن ربما لم تقصد شراً لأنها لا تعرف شيئاً عن علاقتها العميقة بأخيها مادوك، ولكنها تساءلت عما إذا كانت معرفتها بعلاقتهما قد تشكل فرقاً في تصرفات كارمن الأنانية بطبعها

لولا كرامتها العنيدة لولّت هاربة حين شاهدت مادوك الذي عرفت من نظرته الضيقة المصوبة إليها أنه كان يتوقع منها أن تهرب. فقد قال بقسوة:

- لا تهربي موورينا.

تقدمت ببطء بسبب وجود غاريت فهي لا تريد أن تظهر

عصبيتها وخوفها أمام والدها. ولكن لِمَ الخوف وأسوأ ما قد يطلبه منها زيارة كارمن مرة أخرى. التفت غاريت ينظر إليها مخللاً أصابعه في شعره الخفيف:

ـ أعدي لنا القهوة مورينا.

دهشت مورينا لأن غاريت لا يشرب في مثل هذا الوقت من الليل القهوة، ولأن مادوك لم يرفض أو يحتج، فقد اضطرت إلى فعل ما طلبه أبوها منها. وقد أمهلها إعدادها القهوة بعض الوقت، لاستجماع أفكارها.

حين عادت بعد قليل إلى غرفة الجلوس، تجر عربة محملة بالقهوة حاولت إشاحة النظر عن مكان جلوس مادوك. عندما أطلت عليهما مرة أخرى وقفت ليساعدها، فودت لو امتنع عن ذلك. لأنه حين لمست أصابعه أصابعها، وهو يأخذ المرية، كادت تقفز إلى الوراء. تمتمت بجفاء:

ـ شكراً لك.

لم تلاحظ ما كان غاريت يفعل حتى لاحظت تململه في كرسيه.. فمن عادة والدها أن يجلس كالميت غير مبال أو مهتم بأي كان هذا إن كان لا يقرأ، تملكتها رغبة مباغتة فثمة ما كدّره دون شك. هل أخبره مادوك الحقيقة عن حادثة كارمن أو ما يعتقد أنها الحقيقة؟ قالت له مستخدمة الاسم الذي يكرهه:

ـ ما الخطب أبي؟

رفع بصره إليها وقد تقدمت لتقف أمامه. تمتم:

ـ لا شيء محدد.

قاطعها مادوك ساخراً.

ـ إن والدك يواجه مأزقاً.

سأل غاريت وحده بطريقة غامضة، فما الذي زجّ نفسه فيه يا

ترى؟.. إنه ليس مقامراً مع أنه يحب ما يسميه لهواً. ولو كان يتحمل النفقات للذهب بشكل دائم إلى النادي.. أهذا ما فعله حينما سافر إلى العاصمة؟ هل ذهب إلى ميدان السباق فوقع تحت الديون؟ سألته متجاهلة وجود مادوك:

ـ هل ذهبت إلى السباق حينما سافرت إلى العاصمة؟

ـ أجل.. إنما ليس الأمر كما تتصورين.

نظر إلى مادوك:

ـ أخبرها بنفسك.

كانت أعصابها حتى الآن قد توترت إلى درجة كادت معها تصرخ في وجههما معاً. تقدم مادوك ليصبّ ثلاثة فناجين من القهوة، ونظراته المركزة تنتقل من غاريت إلى ابنته، وهو يستخدم قسوته هذه عادة للوصول إلى عمق ما يريد. قال بصوت حاد:

ـ ما يحاول والدك أن يقول إنه تلقى عرضاً من شركة فنادق لبيع المنزل والأرض التي يملكها.

ـ ماذا؟

نظر غاريت إليها بقلق ولهفة فرأى اتساع عينيها الدهشتين، ووجهها الشاب المتوتر المشدود بألم. قالت هامسة:

ـ لم توافق؟

كانت صدمتها أقوى من أن تفكر في امتيازات هذا العرض. فلم تستطع إلا أن تتصور البولدوزر وأطنان الاسمنت والحجارة. وما من شك أنهم سيبنون شيئاً فائق الجمال، لكن قبل حدوث هذا، سيدمرون الكثير من جمال الطبيعة التي لا يمكن لأي مهندس أو بنّاء التعويض عنها مهما كان بارعاً في عمله.

حين لم يرد عليها غاريت، رمت بنفسها على ركبتيها أمام كرسيه، وقالت بصوت متوسل:

- أبي.. لا تفعل! إنك بذلك كمن يدنّس المقدسات!

تنهد غاريت:

- سيقتلني كذلك!

- إذن ما المشكلة؟

تحرك مادوك وكأنه يحاول تذكيرها بوجوده. أدارت رأسها تنظر إليه بغضب.

- وما دورك في هذا؟ أم تراك تقدم نصيحة الجار؟

- إن كنت تودين وصف الأمر على هذا النحو فأجل.

- أنت تمزح!

تعرف أن قولها هذا صبياني، لكنها كانت تعرف أن استخدام مثل هذه العبارات من بين كلماتها الطفولية مفيدة.

قاطعها غاريت قائلاً بسأم:

- الأمر أكثر من هذا يا مورينا.. نحن نحتاج إلى المال، ويجب أن أفعل شيئاً. لكن جدي وضع في وصيته شرطاً يقول، إن عائلة لامب أحق بالشفعة إذا عرضت الأملاك للبيع.

ارتجفت مورينا، والتفتت بحدة إلى مادوك:

- أتريدها؟

- بكل تأكيد.

سألت غاريت غاضبة:

- لم تذكر هذا من قبل؟

- كنت سأفعل هذا عاجلاً أم آجلاً.

قال مادوك، وكأنه يتوقع سؤالها التالي:

- كان جد والدك وجدي صديقين حميمين محافظين. ما من أحد منهما كان يرغب في رؤية الحياة الطبيعية في هذا الجزء من الساحل يندثر. وهذا ما دفع جدك الأكبر إلى وضع هذا الشرط في

وصيته... فقد كانت عائلتنا ثرية وقوية يومذاك. فظنّ أن بيعها لنا الطريقة المثلى للحفاظ عليها.

أنّاها شيء ما بأن اللحظات التالية حاسمة. فحاولت التحدث ببرود:

- أرى هذا.. إنما ما علاقة الوصية بهذه اللحظة.. فلست مضطراً أبي إلى البيع إن لم تكن راغباً فيه؟ سنتدبر أمرنا، وليس على مادوك أن يحشر نفسه في هذا الموضوع.

نظر غاريت إلى ابنته بحزن وتعاسة، وكأن منظر البراءة على وجهها يؤلمه:

- تعبت من المقاومة مورينا.. فما أنا بذاك المقاوم بطبيعتي، حتى حين كنت صغيراً.. حين فكرت مؤخراً في المستقبل شعرت بالكآبة والخوف.. عندما زارني رجل قبل بضعة أيام عارضاً عليّ البيع، استحسنت الفكرة.

- أين كنت ساعتئذ؟

- كنت تسبحين قرب الصخور المرجانية حبيبتي.. وافقت على مقابلة مرؤوسيه في سان خوان ولكنني لم أشأ أن أذكر العرض حتى أعود.

- وهل وافقت؟ هل وقّعت شيئاً؟

- لا.. أغروني كثيراً، ولكنني كنت أعرف أن عليّ أن أسأل مادوك أولاً.

صاحت بيأس:

- لماذا؟ ألم تقل إن تركك هذه الأرض سيقتلك؟

- اصغي إليّ حبيبتي..

ركع على ركبتيه متجاهلاً القهوة التي طلبها.

- يعتمد الأمر كله عليك، إنما لا أظنني قادراً على الشرح

يجب أن أترك الأمر لمادوك ليشرحه لك أما أنا فسأوي إلى فراشي وغداً أراك. وإن كنت تريدين رؤيتي قبل ذلك فادخلي قبل ذلك وأبلغيني قرارك.

نظرت مورينا بحيرة إلى أبيها وهو يبتعد ثم سمعت مادوك يقول بلطف:

- اجلسي مورينا رجاء.

- لا أستطيع.

هزّها خوف مجهول راح يضغط على أعصابها حتى عجزت معه إلا عن التحديق في مادوك. سألته:

- ما الذي يستحيل على والدي إطلاعي عليه؟ لم يكن قطّ كما بدا لي الآن. هل وعدك بالبيع دون استشارتي؟ هل الأمر كما أقول؟

اقترب منها ليمسك ذراعها حتى تقف:

- ربما من الأسهل عليك أن تصغي إلى ما سأقوله خارجاً.

كانت الظلمة حالكة في الخارج ولكن النجوم الاستوائية كانت كعادتها براقة بحيث لم يحتاجا معها إلى أية إنارة أخرى. مرّ حيوان صغير أو حيوان بحري من أمامهما أثناء اقترابهما من الشاطئ وتحطمت صدفة تحت قدمي مادوك.

أدركت مورينا ببطء أنها أطاعته دون تفكير، وأنها تسير دون وعي إلى جانبه.. فهمست:

- أرجوك!

ردّ عليها باقتضاب:

- سأشتري المنزل والأرض مورينا.. يريد والدك أن يبيعني إياهما لذا يجب ألا تغضبي منه.. إنه يفكر في مستقبلك.

- مستقبلي..! لكننا لم نصبح عجوزين!.. ولو أصبحنا

كهلين لفهمت!

- لم يعد أبوك شاباً. وقد حدث أن عرضت عليه شركة الفنادق مبلغاً كبيراً وهم سيستمرون في ملاحقته حتى يستسلم، ولكن ما يخيفه أنه سيخسر المال مهما بلغ.

- كيف؟

- سأفسر لك الأمر هكذا.. لن تسمح الشركة لوالدك بعد البيع بالعيش هنا، فيضطر عندئذ إلى مغادرة المكان وسيشعر بالتعاسة ثم يأتي دور الفساد.. سمّه ما شئت: القمار، العبث، النساء.. وما هي إلا فترة قصيرة حتى يفلس. أراهن على هذا بحياتي.

كانت أمواج البحر الدائبة تبعث الهدوء وتمحو آثار أقدامهما ولكنها للمرة الأولى في حياتها كانت صماء أمام توسلاتها فما زالت مشاعر الخوف مسيطرة بل إنها تزداد سوءاً.

سألت بصوت متحجر:

- وماذا عندك من عرض؟ أنت ستحدو حذوهم أعني أنك ستدفع لنا المال ثم تخرجنا من منزلنا

- فليبقَ أباك إن شاء

- وماذا عني أنا؟

- ستصبحين زوجتي ليتأكد غاريت أن هناك من سيرعاك

أحست مورينا بالنجوم تتراقص حولها، وصاحت.

- أهذه طريقتك في المزاح؟

- لا.. فأنا بحاجة إلى زوجة، وغاريت يحتاج إلى إيراد مدى الحياة فكان أن عقدنا صفقة.

- هكذا بكل بساطة!

لم تصدق أن غاريت قد يفعل شيئاً كهذا.. أرادت أن تهرع إليه متوسلة حتى ينكر ما سمعته.

أوقف مادوك خطواتها المتعثرة ونظر إليها:

- لا .. ليس بكل بساطة... عاريت قلق عليك، ويعرف أنك متصبحين وحيدة في هذا العالم إن أصابه شيء. يمكنك العودة إلى أمك، لكن الله وحده يعلم ما قد يحدث قبل أن تصلي إليها.

- لن أذهب إليها.

- حسناً إذاً. لماذا لا تتعقلين فتفعلي ما يطلبه منك؟

- رويدك! كم هو المبلغ الذي ستدفعه لأبي؟

- مبلغ جيد أما الدفع فأسبوعي. هذا أضمن وأسلم له. سنحرر اتفاقاً مكتوباً، لكنني لا أستطيع أن أدفع له مبلغاً ضخماً.

- لا أرى لماذا تشركانني في هذا كله؟

- سبق أن قلت لك إنني بحاجة إلى زوجة، والمؤسف أن من أرهب الزواج منهن يرفضن الزواج بمزارع مفلس.

شرقت بغضب:

- مفلس؟ أنت ثري دون ريب!

- كانت عائلتي ثرية يوماً. ولكن والدي خسر أمواله ولم أكتشف ذلك إلا بعد وفاته بل لقد وجدته غارقاً بالديون ولولا الأعمال التي تركها في بريطانيا والتي أديرها الآن بنفسي لخسرنا كل ما نملك. كنت في السنتين الماضيتين أوسّع أعمالي حتى أسدد ديون أبي. وحين سددتها وخرجت كارمن من المستشفى، عرفت أن عليّ الخيار بين بريطانيا وبين الجزيرة فكان الكسب للمزرعة. ولكن لسوء الحظ هذا يعني أن عليّ الاقتصاد بالعيش.

إذن لهذا السبب لن يتزوج الآنسة روسيل! أو الفتاة الإنكليزية. عوضاً عن الزواج بالفتاة الأصيلة التي يريدها سيرضى بما لديه.

حدقت إليه موريتا:

- لم لا تكتفي بعشيقة حتى تستطيع الزواج بمن تؤمن أنك

تستحقها؟

لاحظت لمعان أسنانه رغم الظلام:

- ستضيع العشيقة وقتي يستكلفني كثيراً وهذا ما لا أستطيع تحمله.

همست ووجنتاها متضرّجتان:

- ولماذا الزواج أصلاً؟

- كما سبق أن قلت ليس لدي وقت للتجول خلسة بحثاً عن التسلية.. أحتاج إلى زوجة لأني أريد أولاداً قبل أن أشيخ ولأنني أريد من يساعدني أيضاً في رعاية كارمن. لا أخالني أجد نساء يرغبن في هذا. أما أنت فلن تستطيعي الرفض ذلك أنك المسؤولة عما صارت إليه.

لم تكن موريتا لتعتقد أن وجنتيها قد تحترقان إلى هذا الحد أو قلبها قد يصبح بهذا البرود. أي نوع من طالب الزواج هذا؟ لا يمكن أن تقبل ولم تتلقَ إلا الإهانات. ما من فتاة تملك ذرة عقل قد تقبل!

قالت باضطراب:

- سأتحدث إلى أبي، فأقنعه بقدرتنا على الاستمرار في ما نحن عليه.

- لن يصغي إليك.

- إذن، سأنصحه بقبول عرض الشركة وعندها ستضطر أنت للبحث عن زوجة في مكان آخر.

التوى فم مادوك بسخرية:

- لا يسمح له بحسب الوصية رفض أي عرض معقول أعرضه

صاحت:

- وهل تعتبر عرضك معقولاً؟

ردّ بحدة:

ـ يصعب أن تجدي محامياً يقول إنه غير معقول! أنا أعرف القانون خير معرفة مورينا.

ـ لكنك تكرهني!

ـ هذا أمر صغير إذا قيس بأشياء أخرى.

خفضت طرفها متمنية لو تستطيع ولو لمرة واحدة، أن تخترق ثقته الباردة بنفسه، أو أن ترى هذه الثقة منحسرة عن وجهه المتعجرف.

احتاجت إلى جهد كبير لتمنع نفسها من الصراخ في وجهه، ولتحافظ على هدوئها. فالحري بها أن تكون حكيمة فتتذاكى عليه كما يتذاكى عليها. أليس هناك ما يدعى بالإيحاء الذاتي؟

سألته بخبث متعمد:

ـ أليس في بريطانيا فتاة تريدها وتحبك هي إلى درجة لا تمانع معها من الزواج بك سواء أكنت فقيراً أم لم تكن؟

ضحك:

ـ غير ممكن.. كما أني أرغب في هذه الأرض.

ـ لكن..

ـ فلنترك هذا النقاش، فما عليك إلا قول «نعم». لتنطلق من هذه النقطة. لقد قلت لغاريت إننا أحببنا بعضنا بعضاً منذ سنتين، لكن وضعي المالي، ووضع كارمن الصحي، أجبراني على الرحيل. لذا لن يصعب عليك إقناعه بأننا سوّينا خلافاتنا، خاصة على ضوء ما استجد.

أحست فجأة أنها ما تزال واقفة بين ذراعيه فشهقت شهقة حادة وجذبت نفسها بعيداً عنه.

ـ ما أوقحك!

ـ حذار أن تفقديني أعصابي لأنني أحاول أن أكون متعقلاً.

ردت بجفاء:

ـ بل تحاول القول أن لا خيار أمامي غير القبول بعرضك الكريه!

ـ لا أعتقد أن أمامك مجالاً للمناورة، بل لن تناوري حينما تفكرين في الأمر بعقلانية وهدوء.

حدقت إليه بشراسة، تحس أنها عالقة في الفخ:

ـ كم لدي من وقت؟

قفل راجعاً إلى المنزل دون أن يترك لها خياراً إلا اللحاق به لم يطلب الدخول، وكانت على وشك تكرار سؤالها حين رد ببرود:

ـ سأمهلك إلى ما بعد الغد وهو وقت متسع. إنما فكري بحذر، وثقي بأنني لن أمهلك فترة أخرى.

ولا تعتقد أنه سيمهلها فترة أخرى.. نظرت إليه بعينين وجلتين حين اختفى في الظلام قاصداً سيارته.

لم تعتقد مورينا قطّ أن بإمكان المرء إجراء نقاش طويل مع نفسه بتعقل، والخروج باستنتاج واحد... أمضت الليل كله تُقلّب الجسد وتقلب الفكر في اقتراح مادوك العجيب ولم تصل إلى حل لمشكلة غاريت التي لن يتورط فيها أحد سواه.

كانت مستعدة للاعتراف بأن كثيراً مما قاله مادوك صحيح، وأنه لو باع غاريت الأرض لشركة فنادق وحصل على مبلغ ضخم، لحلّت كارثة. فهو لم يكن يوماً يعتبر المال مهماً ولهذا كان يتركه دائماً ينسلّ من بين أصابعه كالماء.. وبناء على ذلك لا تستبعد أن يهدر أمواله إذا رفضت عرض مادوك وتركت غاريت ينتهي كما قال مادوك لأنها تشك أن تفكيره الآن بالمال دافعه فقط التفكير في

المستقبل كما يدّعي.

ثم وكما قال مادوك، بإمكانهما رفض عرضه، وماذا بعد؟ قد يحيا المرء مع مال كثير إنما كيف له أن يعيش بدونه؟ فقد تمرّ شهور قبل أن تجد لها عملاً، أو شخصاً آخر يود شراء لوحاتها. ترى هل ستستطيع الوقوف مراقبة غاريت يتضور جوعاً؟

فجراً، كانت مورينا متورمة العينين بائسة، بسبب تعاظم المشكلة في نفسها. ليلة أمس لم تدخل إلى غرفة غاريت الذي كان ينتظرها على أغلب الظن. قبل أن تتحدث إليه، أدركت أن عليها اتخاذ قرار نهائي.

يرغب مادوك في أرضهم لأنه لا يريد أن يجتاح مزرعته السائحون وهي في هذا الأمر متعاطفة معه ولكنها غير معجبة بالطريقة التي يريد استخدامها لمنع حدوث ذلك. فادعاؤه أمام والدها وقوعهما في الحب سابقاً سيعسّر عليها مقاومة اقتراحه السخيف. ولو أنكرت وقوعهما في الحب لرفض دون ريب غاريت زواجها وإن أنكرت اهتمامها بمادوك وهو كذب فسيستحيل عليها تغيير رأيها فيما بعد وعندئذ لن يصدقها غاريت. ثم ألم يقل مادوك إنه لن يمهلها وقتاً آخر؟ وقد يكون مخادعاً إنما كيف لها أن تتأكد؟

أحست أنها مصابة بالحمى فانسلت من الفراش لترتدي ثوب السباحة ولكنها كانت تشعر بأن لا بد من الاستسلام للقدر فما من سبيل أمامها إلا الزواج بمادوك الذي تعلم مدى احتقاره لها هذا الاحتقار الذي سيجلب إليها التعاسة.

فضلت أن تخبر غاريت بموافقتها على الزواج بمادوك بعد السباحة فيحق لها أن تخلو بنفسها بعض الوقت لتدعم قرارها المتأرجح، ولتقنع نفسها بأنها تفعل ما هو صواب.

حين زارها مادوك في الصباح التالي أطلعته على قرارها

بالزواج منه، فأسرع يضع خطط الزواج. وفي هذه الأثناء نجحت في إخفاء مخاوفها عن غاريت الذي أسعده قرارها. حينما راح يتسم لنفسه شاكراً لطف القدر لما آلت إليه الأمور، وجدت مورينا أن من العسير عليها منع نفسها من الالتفات إليه بهستيرية، والصراخ في وجهه «أن تكلم بلسانك أنت».

لا تشك في أن مادوك يعرف أنها علقت كالفأرة في المصيدة، وأنه إنما أمهلها اليومين الإضافيين للتفكير علماً أن لا حاجة إليهما. لم يقل شيئاً، لكنها فهمت من اعتداده بنفسه وثقته بها أنه لم يكن يتوقع أن ترفض. لا تنكر أن وجهه شحب قليلاً عندما وافقت أمامه على الزواج بها وربما مردّ شحوبه هذا إلى الخسارة التي سيمنى بها عندما يتخلى عن حريته.

قال لها بحزم إنه لا يريد الانتظار. نعم لا بأس باليومين كوقت، إنما عليها الرضى بأسبوعين. فهو يريد تسجيل الاتفاق لمصلحة غاريت، وهي تحتاج إلى وقت لشراء جهاز العروس...

ردّت عندما سألها عما تحتاجه.

ـ لا أحتاج إلا للقليل.

لكنها سرعان ما أصيبت بالرهبة فقد يظن أنها مستعجلة للزواج به... قال لها باقتضاب:

ـ أريد أن تكون عروسي أنيقة لذا ستتوجه إلى سان خوسيه غداً.

فركت يديها المتعرقتين فجأة بالشورت وسحبت نفساً عميقاً:

ـ لا أستطيع تحمل هذه النفقات. ولا أبي يستطيع كذلك وما الفائدة من هذا ما دمت لن أكون عروساً بما للكلمة من معنى؟

ـ ماذا قلت؟

ارتجفت أعصابها وتوترت أمام هذه البلادة الذهنية التي يتعمد

إظهارها.

- لا تتعذب! فلن يكون زواجنا عادياً.. وعليه لا أحتاج إلى كثير من الثياب

تجاهل إشارتها إلى الثياب وقال ببرود:

- أظنني ذكرت رغبتي في الأبناء؟

تورّد وجهها وخفق قلبها بقوة. ولأنه المسؤول عن هذا ازدادت كراهيتها له.

- ما حسبتك جاداً.. وعلى أي حال...

التوى فمه ما إن تلاشى صوتها حرجاً. وقال:

- لن تقولي إن الناس لا يكوّنون عائلة إلا إذا تحابوا.. أنسيتِ ما فعلته وتفعليه؟

شعرت برغبة في البكاء فهو يقول بصراحة إنه لم يحبها، وإنه مؤمن أنها أقامت تجارب عديدة مع رجال آخرين... فهمست تدير وجهها لئلا يرى مدى ألمها:

- يستحسن أن تعاملني كموظفة عندك.

- أوه.. سأفعل هذا. إنما أريد من تشاركني الفراش أيضاً، وهذا ما يساعد في الحفاظ على المظاهر. فالرجال هنا رجال كما اكتشفت.

وكأنما ليؤكد على كلامه أمسك بذراعيها وأدارها ليرجعها إليه، وكانت المرة الأولى التي يضمها فيها منذ ليلة النادي. ارتجفت، وهي تشعر به قريباً منها: إحدى يديه تستريح على خصرها والأخرى على ظهرها مرسلة شرارات نارية إلى أعصابها تضعف قوتها التي سرعان ما تلاشت ولكنها مع ذلك حاولت الابتعاد مذعورة من سرعة تجاوبها. لكنها لم تكن مستعدة للعنف والخشونة اللتين لجأ إليهما حين أبعدها عنه.

وضع يديه في جيبي سرواله وعيناه تلمعان:

- لن تنجحي بادعاء البرود. فأنا لن أدفع ثمن شيء ما ليبقى فوق الثلج.

هزت رأسها تلملم ثيابها المشعثة تحس بالكرب:

- لديك انطباع خاطىء عني. اعلم أنني لا أقيم علاقات.

- أشك في صدق قولك خاصة بعدما وجدتك بين ذراعي رجل مثل أرغون فارسيا.

- مادوك.. أنا..

- فلتترك هذا النقاش. ما رأيك بالقهوة؟

في الصباح التالي جاء ليصحبها باكراً وما أدهشها اصطحابه للعمة أشدون، قال لها:

- طلبت من عمتي مرافقتنا لتساعدك، كما طلبت من كارمن المجيء، لكنها متعبة.

- آسفة.

حاولت ألا تظهر ارتياحها فهي لا تريد أن تشتري ثناءً أمام ناظري كارمن الساخرة المزدرية. نزلت السيدة أشدون من السيارة فطبعت قبلة على وجه مورينا، عندها شعرت بأن هذه الخطوبة أسعدت العجوز التي صاحت:

- يا لها من مفاجأة! لقد نسي مادوك أنني عجوز لا أستطيع تحمل مفاجآت كهذه، كان يجب أن يلمّح من قبل!

سمعها مادوك وتمتم من بعيد:

- سبق أن قلت لك إن الخطوبة حدثت فجأة.

انضم إليهم غاريت ينظر بإشفاق إلى وجتني مورينا المتوردتين.

- كيف حالك سيدة أشدون؟ ما أسعدني برؤيتك

شهقت العجوز، وأمسكت يده بين يديها، دليل ارتياح.

ـ أوه.. غاريت! طبعاً.. وأنا كذلك.. لكن كما قلت لموريتا قبل قليل إن مادوك فاجأني عندما دعاها لتناول الشاي ذلك اليوم، لم آخ تماماً اسمها. وغادرت قبل أن أن أعرف أنها ابنتك أو أنها ومادوك متحابان.

* * *

٦ ـ العروس الحزينة

تقع سان خوان على الساحل الشمالي الشرقي للجزيرة. ولها كمعظم مدن الهند الغربية تاريخ طويل من الحروب والاضطرابات التي سبقت الحكم الذاتي، وهي الآن تحتوي على منتجعات سياحية شهيرة تؤمن الجزء الأكبر من الدخل الوطني الذي يُضاف إليه ما تنتجه الجزيرة من بن وتبغ وسكر، يُصدَّر قسم كبير منه إلى أميركا.. تقسم البلدة إلى ثلاثة أقسام: القسم القديم من المدينة كناية عن جزيرة كانت يوماً معقلاً ضد الغزوات، تتصل بالمدينة الجديدة بجسرين ضخمين، وفي المدينة الجديدة أحياء سكنية حديثة. أما في منطقة ريوبيدراس فتجد فنادق فخمة ومركزاً تجارياً وقد سميت المنطقة بسان خوان تكريماً لمكتشف الجزيرة الأول (خوان بونسيه دي ليون) الذي كان أول حاكم أسباني لبورتوريكو، وقد حكمها عام ١٥٠٨ ولكنه أثناء حكمه أقام هذه المدينة على أنقاض المرفأ القديم عام ١٥٢١.

كانت السيدة أشدون معتادة على التسوق في هذه المنطقة التي تعرفها خير معرفة، وهذا ما جعل موريتا ممتنة لها خاصة وأن وجودها غطّى الصمت المتشدد بينها وبين مادوك. بدت السيدة وكأنها تتوق إلى الزواج وكأنه لها. ما هي إلا فترة حتى حدّدت لمادوك أين عليه أن ينزلهما وعندما حدث ذلك طلبت منه الابتعاد

ولأنه كان على موعد، تركها دون احتجاج.

- تعالي يا طفلتي!

أسكتها العمة بذراعها بنفاذ صبر.

- نحب بعض النسوة أن يساعدهن الرجل في اختيار ملابسهن أما أنا فلا أحب ذلك لأنهم بحسب رأيي يعترضون طريق اختيارنا.

- لكنه ليلة أمس قال إنه سيرافقني.

ابتسمت العمة:

- كان ذلك قبل أن أعرض مرافقتك. أنا لا أقول إنه لا يعرف الكثير عن ثياب النساء، لكنه لا يعرف، بقدر ما أعرف. ثم، أنا مؤمنة أن على جهاز العروس أن يكون مفاجأة للعريس، لذا ليس عليه أن يراه مسبقاً.

فكرت موريتا بمرارة: ولكن عليه أن يدفع ثمنه.

أردفت العجوز:

- هذا متجر فيه أشياء جميلة أقصده كثيراً. أنت لست مضطرة لشراء ما لا يعجبك.. ثمة أماكن مماثلة.

همست موريتا بتعاسة وهما تسيران مع البائعة إلى صالون بارد أرضه من الآجر:

- لا أريد أن أنفق الكثير من المال.

ربما لم تسمع العمة ما قالت، أو تجاهلته. في هذه اللحظة تذكرت كيف دسّ والدها في حقيبتها مبلغاً من المال، وحين حاولت الاحتجاج قال لها إن هذا جزء من مدخرات كان يدخرها لمناسبة كهذه، فكان أن قبلت بما أعطاها إياه تجنباً للفت نظر مادوك. وهي الآن حائرة بين إنفاق مال أبيها وبين السماح لمادوك بدفع ثمن كل شيء. قالت:

- سيدة أشدون.

- ناديني عمتي.. عمتي أنجيس، لأنني أحب ازدواجية الاسم على الرغم من تجاهل مادوك له.

ابتلعت موريتا ريقها بصعوبة، غير قادرة إلا على حب هذه المرأة الدافئة القلب، حتى وإن كانت ممن يصمم على تنفيذ ما يريد.

- حسناً عمتي أنجيس.. هل لنا أن نذهب إلى مكان آخر ليست أسعاره باهظة؟

ابتسمت أنجيس:

- لا! لقد كنت مصممة أزياء قبل زواجي لذا أعرف أن بعض ما في هذا المحل مناسب لك. اتركي الأمر لي.

هل جميع أفراد عائلة لامب متسلطون هكذا؟

سمعت أنجيس تكمل:

- سنشتري بعض القماش الذي سأخيطه لك فساتين ترتديها بعد عودتك من شهر العسل. ستحتاجين إلى أشياء جديدة ساعتئذ. لولا رغبة مادوك في الزواج السريع لخطت لك جهازك كله بنفسي.

انكمشت موريتا.. ألا تدرك أنجيس أن مادوك لم يعد ثرياً؟

تمتمت يائسة:

- يا للطفك!

ابتسمت بسخاء:

- لا تقولي هذه الهراءات. سيسرني أن أشغل نفسي بشيء ما.

اختارت أنجيس عدة موديلات لتجربها موريتا. بعد قليل قالت وهي توقع طلباً للفساتين التي اختارتها:

- مصممو الأزياء هنا بارعون بحيث يمكنهم منافسة أزياء العالم.

نظرت موريتا برعب إلى كومة الثياب والاكسسوارات المنتظرة توضيبها لحملها إلى البيت معهم.. كانت تعلم أنها ستضيع وقتها

إن حاولت الاحتجاج أو حاولت دفع ثمنها.

وقت الغداء قابلتا مادوك الذي اختار مطعماً يتربع على تلة مشرفة على المدينة وهي تلة تصورت موريتا أن كل المشاهير الذين زاروا المدينة مروا بها. كانت الخدمة ممتازة، والطعام لذيذاً، لكنها لم تكن تشعر بالجوع. تناولوا الكوكتيل، ثم مزيج من الفواكه الاستوائية مع الأيس كريم، غير أنها لم تذق الكثير منها، فهذا كله سيكلف مالاً كثيراً مع أنها أملت أن يعتقد أن ما يقدمه ضروري لصالح عمته لا لصالحها.

أثناء تناول القهوة الشهيرة المسماة قهوة الجبل، التي تنمو على ارتفاع ألف ومائتي متر عن سطح البحر، تركتهما أنجيس مفسحة المجال لموريتا بالتحدث إلى مادوك على انفراد. قالت له بحدة وصوت منخفض:

- لا أدري كيف تتحدث عن الفقر. إنك بهذه التصرفات توحي للجميع بالعكس وهم معذورون إن حسبوك غنياً.

نظر إليها ببرود:

- بسبب هذا الصباح؟

- لا أحتاج إلى ثياب. كان يمكننا الزواج بهدوء. من الجنون أن ننفق أموالاً طائلة.

ارتشف قهوته ببطء.

- نعم لم أعد أملك ما كنت أملكه. لكن إنما في بعض الأوقات لا بدَّ من الإنفاق. لا أريد لزواجي أن يكون حدثاً منزوياً، يحرج عائلتي، ويطلق ألسنة الناس.

احترق وجهها، كان يجب أن تعرف أنه يفكر في عائلته لا فيها! لكن غضبها لم يلبث أن تلاشى ليحلَّ الألم محلّه كالعادة:

- كنت أحاول المساعدة فقط.. أنا مثلك لا أرغب في حفل

زفاف متواضع، لكن علينا التنازل قليلاً.. عمتك تنفق المال وكأنك مليونير.. نعم هي ألطف الناس.. إنما لا يبدو أنها مطلعة على وضعك المالي حالياً.

- ولا أريدها أن تطّلع!

- لقد عزمت الرأي على إعداد ثوب الزفاف ولكن القماش باهظ الثمن ولا تكمن المشكلة هنا فحسب، بل تتعداه، وذلك سيقتضي مني الذهاب إلى المزرعة يومياً لأيس.

- سأرسل من يحضرك.

كادت تصرخ إحباطاً وسخطاً.. فهي لم تقصد ما يشير إليه وهو يعلم ذلك! لو كان يحبها لهان الأمر لكنها والحال هذه تتطلع شوقاً إلى قضاء بضعة أيام بحرية وحدها. قالت:

- ليس معي متسع من الوقت.

- أنت مضطرة، وإن كان سبب قلقك غاريت فانسي الأمر لأن عليه أن يعتاد على العيش وحيداً وإن كان يكره الوحدة فليأت إلى المزرعة.

- وهل تريد أن تكون كارمن وصيفتي؟

اشتدَّ فمه غضباً وقال:

- تعرفين أنها نعتت ذلك أم تراك تريدين أن تتعرض لمراقبة الناس علناً؟

تفوقعت موريتا خشية غضبه، لكن عودة أنجيس أنقذتها وما حفظ ماء الوجه أن السيدة أشدون لم تلاحظ شدة شحوب وجه موريتا.

بعدما رافقتها السيدة أشدون إلى صالون تجميل لتقصّ لها شعرها ولتسرحها لم تكد موريتا تتعرف إلى نفسها.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة من بعد الظهر عندما غادروا

البلدة وأوصلها مادوك إلى منزلها قبل أن يوصل العمة. وهناك رتب أمر اصطحابها ووالدها للعشاء عنده ثم قال إنه سيحمل معه فساتينها جميعاً إلا واحداً، فمن المستحسن نقل كل الأغراض إلى المزرعة لأنهما قريباً سيتزوجان. بعد ذلك جذبها جانباً بعيداً عن الموجودين دامّاً في يدها شيئاً:

ـ ضعي هذا لئلا يتكلم الناس عنّا.

لم تنتبه إلى ما راح يلمع في إصبع يدها إلا بعد أن ابتعد.. لاحظت مذهولة أنه خاتم خطوبة: خاتم غالي الثمن يختلف عن القرط المتواضع الذي أهداها إياه مرة. ترقرقت الدموع في عينيها وهي ترفعه إلى شفتيها، ليس بسبب ارتفاع ثمنه، بل لأنها كانت تتمنى من كل قلبها لو قدّم إليها الخاتم مع حبه.

أرسل مادوك كما وعد، سيارة لاصطحابها ووالدها، وكانت قد فكرت وهي تقف أمام المرآة أن مادوك سيتزوج امرأة أنيقة يستطيع تقديمها إلى معارفه دون أن يخجل.

كان مادوك قادماً من جهة منزل المدير حين توقفت السيارة أمام المنزل، وحين شاهدها تقلص فمه وكأنه سحب نفساً حاداً.. أما هي فأسرعت تطلب منه الانفراد فانسحب غاريت بعدما أساء فهم القصد. وسرعان ما أخرجت من حقيبة يدها الأوراق النقدية التي أعطاها إياها يوماً ووضعتها بين يدي مادوك.

ـ يجب أن تأخذ هذا المال! حين أصبح زوجتك ألبس ما تدفع ثمنه، أما الآن فلا أستطيع!

تصادمت نظراتهما، نظرتها متحدية، ونظرته سوداوية، ثم تمتم بعض الكلمات قبل أن يدسّ المال في جيبه.. قال بيرود، جعلها تحس أنها تجعل من الحبة قبة:

ـ كما تريدين.

كانت الأمسية عائلية.. إنما لم تشعر خلالها موورينا بالارتياح ولولا حديث أنجيس وغاريت الغنيين بالمعلومات اللبقين بالحديث لما عرفت كيف يتحمل أي منهما السهرة.

بعد احتساء القهوة، استُدعي مادوك إلى الهاتف وظلّ غاريت وأنجيس يتجادلان بشأن لوحة أعجبته، أما كارمن فانتهزت فرصة وجودهما على انفراد لتهاجمها. صاحت بشراسة:

ـ لست جادة في تنفيذ هذا الزواج الجنوني! أعرف أن مادوك لا يحبك.

ردت بيرود:

ـ وكيف تعرفين؟

ـ أرى هذا.

إذن لم يخبرها.

ـ وهل تعارضين زواجي بأخيك؟

ـ لا أدري كيف أقنعه. لكن إن تزوجته أعدك أنني سأقوم بجهدي لأحوّل حياتك جحيماً.

ردت بهدوء:

ـ لستُ مسؤولة عن حادثتك كارمن.

ـ لقد نسيت ما حدث بالفعل قبل سنتين.. فصدمة الحادثة أثّرت على ذاكرتي.. لكنني أتذكر بعض الأشياء منها أنك كنت تقودين السيارة!

أحست موورينا باليرودة ويتعاظم الرعب. إذن هذه هي خطة كارمن الجديدة، ولكنها ليست أول إنسان يدّعي فقدان الذاكرة تجنباً للوقائع السيئة.

ـ لكنك كنت طبيعية فيما بعد.

ـ لا أذكر.. كل ما في رأسي ضبابي. ولكنه لا يزعجني الآن

بل ما يزعجني أنني لا أعرف كيف جعلت أخي يوافق على الزواج بك. اسمعي لا أريدك هنا.

ردت بيرود:

- أخشى أنكِ غير قادرة على الحؤول دون ذلك.

ظهر مادوك، فصرخت كارمن بحدة، وكأنه وصل في الوقت المناسب لينقذها من وحش:

- مادوك! مورينا تريد طردي من المنزل قائلة إنني لن أستطيع القيام بشيء!

شهقت مورينا أما مادوك فرمقها بنظرة إجرام قاتلة ولكنه قال ببرود:

- لا أظنها قصدت إزعاجك كارمن. قد يمضي وقت قبل أن تعتادا على بعضكما بعضاً إنما لا داعي إلى أن تخشي أحداً. فلن يكدّرك أو يخرجك أي كان إلى مكان لا تريدينه.

أنهت كارمن تمثيليتها بنجاح بإساكها بيده تدّعي مسح دموعها. تمتمت

- أوه يا حبيبي... لا أدري ما أفعل بدونك!

ربت كتفها باليد الأخرى بحنان:

- ستكون مورينا قربك لتساعدك. ألم تقولي مراراً إنك تتمنين لو تصبح لك عبدة.

شحب وجه مورينا حتى الابيضاض فقد اتضح لها أين تكمن عاطفته وهذا يعني أنه لن يصدق أن كارمن تخدعه.

ها هو يهب أخته ما تريد علماً أن وجودها مع أخته سيكون دافعاً إلى مزيد من الحقد ولكن كيف له أن يفكر في الزواج بفتاة يكرهها هو وأخته. إن هذا الحقد سيوقع في المستقبل كارثة.

حُدد موعد الزفاف في السبت الأول من شهر حزيران وفي هذا

اليوم الموعود أشرقت الشمس فبدت خالية من السحاب ولكن السحب الوحيدة التي بانت كانت في أفق مورينا، التي استيقظت باكراً تفكر.. كان فم مادوك ليلة أمس حين زارها خطأ دقيقاً فتساءلت عما إذا كان يعيد التفكير في آخر لحظة. عندما كان يغادر منزلها قال لها إنه سيراها ساعة المراسم فكان قوله هذا الدليل الوحيد الذي يثبت أنه لم يغير رأيه.

هزت كتفيها بلا اكتراث، وحاولت النظر إلى الجانب المشرق من المسألة.. يحسُّ غاريت بالرضى لأن المنزل والأرض سالمان، وهذا هو الأهم بالنسبة لها لذا على نفسها أن تنعم بالسعادة أما ماذا سيحدث فستكتشفه هي ومادوك فيما بعد..

سعت كارمن جهدها لتجعل حياتها بائسة وذلك عبر انفجارات غاضبة وتصرفات هستيرية تكررت أكثر فأكثر مع اقتراب يوم الزفاف... لم تكن مورينا تعلم ماذا قالت كارمن لعمتها، فأتجيس على الرغم من إتمامها خياطة ثوب الزفاف، أظهرت برودا في التصرف تجاه مورينا.

وعدت مورينا مادوك بألا تذهب للسباحة ذلك الصباح ولكنها وبينما كانت تتسلل من المنزل قاصدة الشاطىء ندمت على وعدها ذاك. فقد بدا لها البحر مغرياً. وعلى الرغم من ذلك قفلت راجعة إلى المنزل لتعدّ لغاريت القهوة التي حملتها إلى غرفته، ثم أخذت ترتب المنزل. كانت تحس أن عليها أن تفعل شيئاً لتمنع نفسها من القلق بشأن المحنة التي ستواجهها.

كانت قد طلبت من باميلا أن تكون وصيفتها، ولقد أبهج هذا باميلا التي علقت عطلتها، طالبة من ريتشارد مرافقتها إلى المزرعة بعد الظهر.. حين شرحت لمادوك أن سبب اختيارها لباميلا التي تكبرها ستاً يعود إلى عدم وجود صديق في مثل سنها. ضحك قائلاً

إن باميلا تماثله عمراً وهي مناسبة لهذا الدور.

حين وصلت مورينا إلى المزرعة، وجدت أنجيس تنتظرها لتساعدها على ارتداء فستان العرس.

دهشت حين لاحظت جمال المنزل الذي زينه جمال متخصصون في حقل الزهور، ولكن هؤلاء العمال لم يعيروها اهتماماً على الرغم من أنها العروس الموعودة.

بعدما أنهى مصفف الشعر مهمته، ووضع بضع لمسات محترفة من الماكياج على وجه مورينا، طلبت أنجيس منه القيام بالشيء نفسه لكارمن، أما هي فراحت في هذا الوقت تساعد العروس في ارتداء ثوب الزفاف. راحت مورينا تنظر بدهشة إلى قماشه الجميل الملتف حول كل ثنية من ثناياه جسمها النحيل بأناقة. رأت أنها تبدو فيه أشبه بعارضة أزياء في مجلة شهيرة، فأخذت رأسها تشكر السماء على العمل المتقن الذي قامت به فتألقت منها ابتسامة حقيقية للمرة الأولى منذ أيام.

كانا سيبحران لقضاء شهر العسل وهذا ما استغربته لأنها لم تتوقع القيام بشهر عسل، لكن مادوك أخبرها في الأمسية السابقة أنه قادر على الاستغناء عن بضعة أيام عمل. حاولت جهدها ألا تفكر في المرة الأخيرة التي كانت برفقته في اليخت على تلك الجزيرة المعزولة، فهزت رأسها مبدية عدم الاكتراث بمشاعر مادوك.

سمعت أنجيس تقول:

- حين تتحسن صحة كارمن، آمل أن تعودي معي إلى بريطانيا. فمنذ وفاة زوجي وأنا أشعر بالوحدة.

ضمّتها مورينا باندفاع بغضّ النظر عن زينتها.

- أتمنى أن تشعري أن هذا بيتك... فما دمتُ أنا ومادوك هنا، فأهلاً بك ساعة شئت.

بدت أنجيس مرتبكة:

- حبيبتي!.. أنت طفلة رائعة.. على الرغم...

لكن صوتها تلاشى بارتباك حين ارتفع صوت آخر عن الباب:

- يا لهذا المنظر المؤثر! هل هناك مناديل هنا؟

إنها كارمن.

خنقت مورينا شهقة بعثتها إلى نفسها لهجة كارمن الكريهة، أما أنجيس فصاحت بصوت مرتفع:

- آه يا عزيزتي ما أروعك!

حدقت كارمن إلى مورينا ساخرة ثم ردّت:

- ربما.. لكنني لن أعود أبداً سالمة الأطراف.

ردت أنجيس بتصميم:

- آه حبيبتي.. ما زلت جميلة، لذا لا تفسدي يومك.

- وما زال لدي عقل أرجح من عقل أختي!

نظرت إليها مورينا بكبرياء رافضة الإحساس بالذنب من يظن أفراد عائلة لامب أنفسهم؟ كلاهما يلومها على ما لا ذنب لها فيه.

وصلت السيدة بونيس تطلب مشورة أنجيس بعمل المطبخ، فتركتها متنهدة.

حين أصبحت على انفراد مع كارمن سارعت تقول لها:

- اسمعي كارمن: لِمَ لا نكون صديقتين؟ إن الصداقة تسهل علينا العيش تحت ظل سقف واحد وأعد أن أقدم لك يد العون.

ردت متمردة، تنوي المشاكسة:

- أنت مجبرة على مساعدتي.. هذا ما يقوله مادوك، فلا تدعي أن الأمر في يدك. سأعاملك بالضبط كما يحلو لي دون أن تتمكني من القيام بشيء حيال ذلك.

- ستكونين أسعد حالاً إن لم تفكري في الماضي بكآبة.

ـ ولا فائدة من التفكير في المستقبل ولي ساق كهذه.

رفعت ثوبها الطويل بلؤم لتنظر مورينا إلى ساقها المشوهة. . ذعرت مورينا على الرغم منها فللمرة الأولى ترى التشوه ولكنها عادت فرأت أن التشوه خفيف جداً فإن رفعت كارمن ذيل فستانها أو تنورتها وعرضت ساقها لأشعة الشمس لاختلط لون التشوه بلون البشرة الأصلية ولخفّ ظهور الندبة.

وجدت أن الوقت غير مناسب لذكر رأيها هذا كما ذكرت في أن الأطباء نصحوها دون شك بهذا. قالت لها بهدوء:

ـ لا أرى ساقك على هذه الدرجة من السوء.

ضمت كارمن شفتيها حتى أصبحتا خطّاً رفيعاً فذكر مورينا مرآها هذا بأخيها مادوك.

ـ لكن الناس يلاحظون عرجي.

ـ أنت تعرفين أن العرج سيصبح مع الوقت عادة. وبعد أن تعتادي عليه ستتصرف ساقك بطريقة لا إرادية.

ـ إن كنت تقصدين من قولك هذه النصيحة فاعلمي أنني لن أتبعها.

قالت مورينا ببطء:

ـ بنى أي مرة خارج بابنا الأمامي باحة لم تكن أكثر من سطح إضافي إلى ألواح قديمة وعندما لم يعد أمام الباب درجة تؤدي إليه، ظلت قدمي بضعة أيام ترتفع آلياً وكأن الدرجة ما زالت موجودة. . أعتقد ولو بطريقة مختلفة قليلاً، أن هذا ما سيحدث لك.

حدقت كارمن إليها وقد علا وجهها القلق والضياع. ترى هل تأثرت؟ تساءلت مورينا ولكنها لم تعرف الإجابة لأن ظهور مادوك والعمة حالا دون ذلك. قالت أنجيس مبتسمة:

ـ ها هو والدك يا ابنتي.

وقف غاريت بالباب يبتلع ريقه بصعوبة وهو ينظر إلى ابنته. . رد فعله العاطفي ظاهر وافتخاره بها بادٍ في نظراته. . لكن أنجيس لاحظت عدائية كارمن، فسارعت للقول:

ـ هيا بنا الآن، لا ينفع الوقوف. . يجب أن تتحرك! غاريت، أحط العروس ذراعك، فلقد سمعت أن مادوك قد بدأ يقلق.

جرت المراسم في غرفة في الطابق السفلي أما حفلة الاستقبال فجرت في الحديقة الواسعة حيث قام الرقص والسمر ولم يغادر العروسان إلا وسط رمي الحلوى وقصاصات الورق والأرز، ووسط التمنيات الحارة، والنكات الثقيلة والخفيفة المتعلقة بشهر العسل.

كانت قصة زواجهما وكأنها مرسومة على قصر صدفة من أصداف مورينا. هذا ما كانت تفكر فيه أثناء توجههما إلى الشاطىء حيث يرسو اليخت. . قطع مادوك الصمت ليقول ساخراً:

ـ تمتعت بالحفلة؟

لم تظاهر مورينا أنها لا تعرف ما يقصد، ولم تتجنب الحقيقة:

ـ ليس كثيراً.

ضحك بشدة:

ـ حسناً. . ليس هناك أجمل من الصدق.

ـ أنا صادقة دائماً.

ـ أفسدت الآن كل شيء، مع أنني كنت قد بدأت أتأثر.

نظرت إليه حائرة فلم تكن تتصور ما سيكون عليه شهر عسلهما، ولو سألها رأيها لفضلت المكوث في المنزل. . ترى هل سيبقى ديكتاتورياً على الدوام معها؟

حين لم ترد، وحين لم يكمل كلامه، بدأت التفكير في الزفاف

الذي كان معظمه صبابياً بشكل لا يصدق، لكن ما تذكره أنها كانت باشة خائفة معظم الوقت.. وقد حاولت من أجل أبيها ألا تظهر تعاستها فكان أن رسمت الابتسامة على شفتيها.

كان مادوك أثناء المراسم وحفل الاستقبال مهتماً بها حتى انبعث الأمل إلى نفسها ولكنه عاد الآن إلى برودته مما أقنعها أنه كان يمثل، ليس في سبيلها، بل في سبيل إقناع المدعوين.

سألته بجفاء:

ـ لماذا تأخرت حتى قلت إننا سنبتعد بضعة أيام؟

وجّه السيارة نحو الجون الذي يرسو عنده اليخت.

ـ ليس لديّ وقت كي أشرح لك كل شيء.

ـ وما أهمية شهر العسل ما دام سيكتشف الناس عاجلاً أو آجلاً أن زواجنا غير طبيعي؟

ـ وماذا يعني هذا بالله عليك؟

ـ إن كنت تشعر أنك غير مضطر للشرح، فأنا غير مضطرة أيضاً.

سألها ساخراً:

ـ أتقولين إن عليّ أن أفعل ما أشاء؟

نظرت إلى البحر الأزرق اللطيف:

ـ إذا أحببت!

ـ النساء عادة يحوّرن كلام الرجال، لكنهن لا يستطعن القيام بشيء لتغيير نواياهم. ستجدين مع الوقت أن زواجنا زواج طبيعي إن بقيت بعد فترة قلقة مما سيظنه الناس بنا، نستطيع إظهار دليل على طبيعة زواجنا.

ترجّلت مورينا من السيارة متوترة غير مهتمة بما يعتقده مادوك.

كان في المركب رجل يعتني به، وهو من سيأخذ السيارة إلى المزرعة. تقدمت مورينا إلى اليخت أما مادوك فراح يتبادل الكلمات مع الرجل الآخر. كان المركب من طراز المركب السابق لكنه أكبر حجماً. سألته بفضول:

ـ لماذا غيرته؟

ـ لم يعد يعجبني الأول.

فكرت في المركب الآخر الذي أمضيا فيه يوماً سعيداً. قالت:

ـ لكنه أعجبني.

ـ حسناً.. ولكنه لم يعجبني... ألم أخبرك أن الماضي مات؟ ولا فائدة من إعادة إحيائه خاصة بعدما قتلته بنفسك.

• • •

٧ ـ أحِبَّني أعِشْ معك

أصبحا أخيراً على سطح المركب وحيدين، بعد يوم طويل مرهق بالنسبة لموريا المصممة على ألا يدرك مادوك مدى قدرته على إحراجها. حبست دموعها قبل أن تلتقت إليه متسائلة ولكنه فهم بالضبط ما تعني نظرتها هذه، فقال ببرود:

ـ انزلي إلى تحت وأعدي لنا الشاي ريثما أبحر باليخت.

ـ وإلى أين متذهب؟

ـ سنبتعد ما وسعنا حتى حلول الظلام.

هذا ليس بالرد المطلوب، مع أنها تعلم أنه في هذه الحالة غير قادر على تقديم الرد. فالمسافات في الكاريبي واسعة ضخمة.

نزلت إلى المطبخ متوردة الوجنتين، متمنية لو تتغلب على عادة التورد الطفولية، فستبلغ في عيد ميلادها القادم الحادية والعشرين. ولقد عانت في السنتين المنصرمتين معاناة كثيرة يجب أن تكون سبباً في النضج. وربما ما تزال جسداً بريئة ساذجة كما كانت، ولكن في النواحي الأخرى نضجت.

راحت تفكر بمرارة كيف لحبها أن يتعاظم في ظلّ ما مرّ بها من ظروف وعوضاً من أن يخبو. ولماذا بدأ هذا الحب الدافئ يعذّبها إربا؟ إنها لا ترغب في أن يلمسها الليلة، لأنها غير واثقة من ردة فعلها.. ولكنها لا تظنه يقدم على لمسها. ترى هل تستطيع حقاً التكهن بما قد يفعل؟ لا، لا تستطيع الجزم خاصة وأن الرجال في هذا الجزء من العالم غير باردين وعليه قد يحاول مادوك التقرب منها

وعندها قد تعجز عن مقاومته.

تناول مادوك الشاي شاكراً باقتضاب أما هي فأشاحت عينيها عنه لئلا تحدّق إلى باقته التي تظهر عنقه السمراء، وعندما تحدث غاص قلبها:

ـ بدت كارمن أفضل حالاً اليوم فقد أظهرت اهتماماً بحوري روسيل.

لم تكن تودّ أن يذكرها بالأخوان روسيل، فقد كانت طيلة الظهيرة تراقب نظرات كارمن المصوّبة إليها كالخناجر، والذي جرى أن تلك الفتاة لم تحاول إخفاء ازدرائها من الفتاة التي اختار مادوك أن يتزوجها. تمتمت:

ـ ستكون على ما يرام مع مضي الوقت، خاصة وأن موري رجل لطيف!

ـ هذا إن تركته وشأنه.

أجابت:

ـ إن كنت تشير إلى المرة الأولى التي التقينا فيها فاعلم أن اهتمامه بي كان فضولاً ليس إلا

ـ وتلقى التشجيع.

التوى فمه بسخرية. ما أشدّ كرهها له عندما يكون له هذا المزاج. إنه يحاول إبراز الحاجز الذي يتنامى بينهما حتى يكاد يتعثّر تجاوزه مع الوقت. حاولت تغيير الموضوع:

ـ لم أكن أعلم أنك تعرف الكثير من الناس. كان في الحفلة عدد كبير من المدعوين. هل بدوت جميلة بالفستان الذي خاطته عمتك؟

ضاقت عيناه وقد واجهتا مغيب الشمس المنعكسة على صفحة الماء البرّاقة:

- بدوت رائعة.

استسلمت مرسلة تنهيدة صغيرة لم يسمعها أو تظاهر أنه لم يسمعها. من الأفضل لها أن تعود إلى المركب في الأسفل وتتحدث مع نفسها عن الرفاف. فقد يكون الحديث إلى الذات أقل إرهاقاً لها! سألته:

- متى تريد العشاء؟

سألها ساخراً:

- وهل سأحتاج إلى عشاء؟

وضع كوب الشاي من يده، وجذبها فجأة بيدها دون أن يترك لها فرصة تجنبه، فوقع كوبها من يدها إلى الأرض وتحطم. ارتجف جفناها وهي تنظر إليه بعدما حطت بين ذراعيه، حيث ضمها بخفة في البداية، ثم أخذ عناقه يشتد. حاولت الخلاص من بين ذراعيه ولكن لهيب مشاعره تلاعب بقوة مقاومتها.

فجأة، كما أمسك بها أفلتها فشعرت بأنه ما عانقها إلا ليزيدها توتراً وقلقاً. قال بطريقة عمّقت شكوكها:

- أعتذر، ظننتك تحاولين تركيز أفكاري على الطعام فقط! يستحسن أن تعدي لنا شيئاً قبل التاسعة.

ثم ردّ اهتمامه إلى المركب مرة أخرى مضيفاً:

- ساعتئذ أكون قد رميت مرساة اليخت للمبيت.

ولأنها لم تجد ما تفعله حتى ذلك الوقت، ارتدت سروالاً قصيراً وقطعة ثوب البحر العليا وتوجهت إلى سطح اليخت تتشمّس. أحست أنه التفت إليها ليراقبها وهي تتمدد على كيس نوم وجدته.. جعلتها عيناه المنصبتان عليها تتذكر كيف كان يضمها منذ لحظات، فودّت لو يُبعد نظره عنها.

سمعته يسأل وهي تتمدد:

- لماذا لم ترتدِ القسم الأسفل من ثوب السباحة، لماذا الأعلى فقط!

- لأن ساقيّ مكشوفتان الآن بما فيه الكفاية!

ردّ محاولاً إزعاجها:

- أتخشين ردة فعلي؟ عندما لا أكون مشغولاً سأرى لماذا تجدين أن من الضرورة التفكير في ردة فعلي.

التفتت إليه بحدة فوجدته ضاحكاً وعلى وجهه تعبير من سجل نقطة على الآخر. حين التقت عيونهما أصبحت نظرته وقور فأسرعت تدفن وجهها بين ذراعيها، متأوهة بصمت.

فيما بعد عادت إلى الأسفل لتطهو الطعام وحين شارفت على إنهائه، صعدت لتخبره وكانت قد سمعت قبل فترة وجيزة المحرك يتوقف. عندما أصبحت على سطح المركب تبين لها أنهما متوقفان في جون جزيرة صغيرة، وهي جزيرة لم يسبق أن زارتها معه من قبل. بحثت عنه فلم تجده بل وجدت ثيابه ملقاة أرضاً عندئذ عرفت أنه نزل ليسبح فقفلت راجعة إلى الأسفل وهي تفكر في أنها سرعان ما ستحسّ بالعزلة. حين انضمّ إليها تأكدت مخاوفها، فقد كان يحمل ثيابه ويلفّ وسطه بمنشفة. قال وهو يدخل الغمرة التالية:

- سأكون معك بعد دقيقة.

عاد مرتدياً قميصاً وسروالاً نظيفين، فجلس قربها ينظر إلى الطعام مبتسماً:

- نمم.. رائحته لذيذة..

لكي تبعد أنظارها عن وسامته، سألته عن الجزيرة فوعدها باصطحابها إليها غداً قائلاً إن فيها منزلاً قديماً، لا يعتقد أنه ملك أحد.

فيما كانا يأكلان قالت بقلق:

ـ حضرت سريرين في غمرة النوم.

ردّ ببرود وكأنه غير مهتم:

ـ سرير واحد يكفي..

ربما سينام على السطح.. تنهد تنهيدة اكتفاء ثم وضع الصحن أمامه ليتناول كوب القهوة.

ـ طبخك رائع موريتا.. أشهد لك بهذا.

تمتمت:

ـ شكراً لك.

سألها:

ـ من أين اشتريت قلادتك؟

ـ من سان خوان.. ومن مالي الخاص.

ـ لم أسألك عن هذا.

دسّ أصابعه تحت السلسلة الذهبية، حتى أحست بثقل يده على صدرها، فابتلعت ريقها، وحاولت أن تبقى دون حراك وهي تراه يحني رأسه ليتأملها ولكنه تركها فجأة فقالت:

ـ سرّني إعجابك بها.

نظر إليها غير مكترث بقولها ثم راح يحدّق إلى وجهها المتعب.

ـ ألن تأوي إلى الفراش؟ الوقت متأخر.

هزت رأسها قبل ـ تشرع في جمع الصحون التي ظنّت أنه سيطلب منها تركها لكنه قال:

ـ اغسليها لأجففها لك.

حين انتهيا قالت له بتردد:

ـ تصبح على خير مادوك.

هز رأسه، لكنه لم يرد. فسألته:

ـ أتود استخدام الحمام أولاً؟

ـ فكرة جيدة.. ما ألطف أن تفكري فيّ.

انتظرته حتى خرج، متمنية لو يمتنع عن السخرية منها. قالت حين وقف قربها:

ـ أتود شيئاً آخر؟

ـ أريدك أنت فقط.

أحست بأنفاسها تتوقف، وشهقت.

ـ أنت لا تعني ما تقول!

ضحك وهو يرى اضطرابها الظاهر:

ـ لا أريدك في هذه اللحظات بالتحديد. هيا أعدي نفسك للنوم.

كان الماء وهي تغتسل دافئاً دفئاً ساعدها على الاسترخاء. تمنت لو تبقى تحت الماء إلى الأبد ليريح تدفقه توتر أطرافها. لم تدرك إلا الآن أنها تحت رحمته حيث لا معين أو مساعد.

ارتدت غلالة نوم قصيرة ومغرية كانت أنجيس قد طلبت من البائعة في المتجر أن تختار منها نصف دزينة من ألوان مختلفة.. نظرت إلى ما لا تستره من جسمها فأحست بالغبطة لأن مادوك لن يراها فيها. فقد استنتجت أنه لن يجعلها زوجته فعلياً، بل سينتظر حتى يصبح واثقاً من عدم قدرة غاريت على استرداد الأرض.

أحسّ مادوك بها دون ريب تدخل إلى السرير لأنه دخل قبل أن تطفىء النور. حين لاحظت عيناه تسودان رغبة شهقت ولكنه لم يأبه بها بل سحب الغطاء الذي تمسك به ورماه بعيداً. ثم قال بوقاحة:

ـ ظننت أنني قادر على الانتظار.. لكن إرادتي عندما يتعلق الأمر بك ضعيفة.. فأنت مغرية جداً.

مال فوقها وجذبها إلى ذراعيه كما فعل منذ دقائق، لكنه في هذه المرة تصرف وكأنه لا ينوي تركها. فيما كانت تحدق إليه برعب بارد

راحت يداه تجولان على كتفيها فظهرها ثم ضمتها إليه. صاحت:

- لا! أرجوك مادوك.. قلت إنك ستنتظر!

تمتم بخشونة:

- لكنني لم أقل إلى متى... ألم أدفع ثمناً جيداً؟

قاومته بشدة:

- دفعت؟

- لا يمكنك التذمر. لقد حصلت على الكثير.

كيف يصف الحب بهذه الطريقة الباردة؟ عليها من أجلها وأجله أن تحاول دفعه إلى التعقل. فقالت مقطوعة الأنفاس تحذره:

- ستندم على فعلتك إن لم تتوقف.

ضحك، وبدلاً من أن يتراجع وضع فمه على راحة يدها التي تدفعه بها، ثم نظر إلى وجهها المضرّج خجلاً:

- لكن ندمي سيكون أعظم إن لم أفعل، فقد تلجئين إلى رجال آخرين.

ردت يائسة:

- ليس في حياتي رجال. يجب أن تعرف هذا!

- كاذبة. إن أرغون غارسيا أحدهم، وهو رجل يكره الاقتراب من العذراوات العديمات الخبرة.

- حسناً. لم يحصل عليّ يوماً!

ردّ بسخرية:

- تقولين هذا بطريقة صادقة ولكنني لسوء حظك لست ممن تخدعه عينان زرقاوان بريئتان.

- أنا لا أحاول خداعك!

- جربي بضعة دموع!

هل بدأت تبكي؟ اكتشفت برعب أنها تجهش بالبكاء تخشى من

اتوجه المزدري الذي يطلّ عليها. كلما لامسها فقدت توازنها وزادت رغبتها في الاستسلام إليه.

- اتركني وشأني!

لكنه تجاهل توسلها، ودفن رأسه في عنقها متمتماً:

- يسرني ارتداؤك هذه الثياب التي تثير أي رجل. غلالة نومك جميلة إنما أفضلك بدونها.

صاحت فزعة:

- لا!

- أريدك موريتا... أنا لم أخطط لهذا، لكن يجب أن تعرفي أن لا مجال للتهرب من واجباتك.

- دون حب؟

- بعض النساء غير قادرات على الحب. لكن لا تقلقي، فلا يهمني حبك بل جسدك ومن الآن فصاعداً سيكون هذا الجسد ملكي الخاص حتى أضجر.

تمدد على السرير الخشبي الضيق قربها فصاحت خائفة:

- المكان لا يتسع لنا هنا.

- لا تخافي سيكون مناسباً.

كادت تبكي وهي تتذكر لطفه القديم معها. منذ سنتين ما كان ليكلمها مهيناً كرامتها بهذه الطريقة. حاولت مقاومته متجنبة فمه ويديه، ولكنه كان أقوى منها. وأخيراً قالت بصوت مختنق:

- دعني.. اتركني وشأني!

لكن حين تلاشت قوتها، وأصبحت مرهقة تماماً، رفع نفسه على ذراع واحدة وجذب الغطاء عنها، وشدها بخشونة وبغير رحمة. كانت ضربات قلبها مرتفعة حتى ظنته يسمعها. فجأة تلاشى العالم وكل ما فيه أمام أحاسيسها المشوشة.

فيما بعد وبينما كانت تنتحب باكية لاحظت شحوب وجهه تحت ضوء القمرة المعتم قليلاً. ولكنها لم تلاحظ مع هذا الشحوب أثراً للندم. دفعته عنها حتى وهو يرجوها أن تهدأ. وتمتم:

- مورينا.. لماذا لا تلجئين إلى الراحة؟

- كيف تقول هذا! إنها أسوأ تجربة مرت بي في حياتي. أكرهك!

تغيرت تعابير وجهه:

- لو كنت أعرف أنها المرة الأولى لما سببت لك الألم.

- لقد أحرقتك!

راحت تضرب صدره بقبضتيها الصغيرتين.. فسارع يقول متجهماً:

- صحيح.. لكنني لم أخطأ حين لم أصدقك. فالدلائل جميعها كانت ضدك.

- أنت من قررت أنها ضدي.

تجاهلها وأردف:

- لم أستنتج إلا أنك مستهترة.. يجب أن تحمدي الله.. لأن زوجك هو من كشف خدعتك.. وهل توقعت أن تنجي بفعلتك إلى الأبد؟ كانت النتيجة ستكون أسوأ بكثير مع شخص استطيع تسميته لك.

استيقظت في الصباح فوجدته نائماً على السرير المعلق الآخر، فتسللت إلى الحمام تغتسل ولما عادت لم تجده في الغرفة. ربما ذهب يسبح. أسرعت ترتدي سروالاً قصيراً وبلوزة بدون أردان، ثم راحت تمشط شعرها الكثيف، ولكنها وهي واقفة أمام المرآة تضرجت وجناها خجلاً وذلك أنها تذكرت ما أحست به بين ذراعيه.

وضعت الفرشاة ثم هرعت إلى المطبخ لتعد الطعام لعلها

بانغماسها بالعمل ستتمكن من نسيان ما حدث.

عندما حضرت اللحم والقهوة أحست به يعود. وما هي إلا دقائق خمس حتى رأته يدخل إلى المطبخ مرتدياً كامل ثيابه. قال بهدوء:

- رائحة لذيذة.

- اعتقدت أنك ستكون جائعاً.

- أنا فعلاً جائع.. تبدين رائعة هذا الصباح.. هل أنت بخير؟

وضعت اللحم والنقانق مع البيض أمامه بغضب.. لكنها ابتسمت حين صاح لملامسته الطبق الساخن.

- أجل.. القهوة جاهزة، سأحضر لك التوست.

- شكراً لك.

- لاتقلق بشأن طبخي!

- مورينا.. لم أقصد ما حصل.

- أرجوك.. فلنترك الموضوع.

تنهد متردداً، ثم التقط شوكته قائلاً:

- يجب أن نتحدث في وقت ما.

- ليس بيننا ما نتحدث عنه.

استراح بالها عندما سمعته يغيّر الموضوع:

- فكرت أن نزور الجزيرة هذا الصباح.. إن حملنا سلة مليئة بالسندويشات نغادر حالاً وفي المساء نعود لتحضّر عشاءً رائعاً.

عاملها بلطف طوال ذلك الصباح، لكنه كان بعيداً عنها مع أن عينيه لم تبرحا وجهها. كانت تحسّ بالبدء بالخوف منه لكنها لم تلبث أن استرخت تحت تأثير البحر والشمس والعزلة التامة. وقد كادت في أوقات معينة تنسى وجوده.

استكشفا الجزيرة كلها، لكنهما لم يجدا جديداً. كانت جزيرة

صخرية فيها أشجار كثيرة يفيء إليها المرء. وجدا أخيراً ساقية ماء صغيرة التفّ حولها العشب النامي الكثيف وتبع قربها طيور مغردة وحيوانات صغيرة.

التقطت موريتا في طريق العودة بعض ثمار البرتقال والليمون فحملتها معها إلى المركب وفيما هما يحثان الخطى أشار مادوك إلى نباتات الفلفل الأخضر الحلو، قائلاً إنها تشير إلى أن الجزيرة كانت مأهولة. كانت رائحة أوراق النبتة كالقرنفل، وهي نبتة أطلق عليها اسم دهب الكاريبي.

قصدا ناحية شاطىء الجزيرة الأخرى للوصول إلى المكان الذي يرسو فيه اليخت فوصلا إلى منزل تغطيه الأشجار والثمريشات، منزل لا يمكن أن يظهر من جهة البحر، صاحت موريتا دهشة:

ـ أنت على حق. ما أروع العيش فيه. أتساءل من كان يملكه؟

ـ شخص ما هجره في النهاية، ولقد أعجبك لأنه يذكرك بالمكان الذي اعتدت العيش فيه، قرب الشاطىء.

ترقرقت عيناها بالدموع:

ـ أجل.. إنه كبيتي.

ـ بحق الله موريتا، لا تقولي إنك اشتقتِ إلى بيتك! هل ستتوقفين عن البكاء إن ذكرتك بأن منزل أبيك لم يعد منزلك؟

نظرت إليه بسرعة، فبدا قوياً، عنيداً، وشريراً بطريقة ما. ما إن اقتربا من الشاطىء حتى قال وكأنما لم يكن هناك صمت بارد بينهما:

ـ فلنسبح قبل الغداء.

كانت المياه عميقة صافية دائمة. قال لها واعداً وهما يعودان إلى الشاطىء:

ـ سنحضر معنا غداً معدات. هناك صخور مرجانية في مكان قريب قد تكون مثيرة للاهتمام.

لن يعودا راساً إلى البيت إذن لكنها لم تعرف ما إذا كان يجب أن تفرح لهذا أم تأسف، فكل ساعة يقضيانها معاً هي بالنسبة لها عذاب وسعادة. فلقد استمرت تكبح جماح رغبتها في معانقته مذكرة نفسها أن هذا أمراً خطيراً.. وإذا عاملته ببرود، فقد يستمر في تباعده عنها، إنما إذا شجعته، فليس أمامها سوى أن تلوم نفسها على النتائج.

حمل مادوك الطعام ووضعه تحت ظلّ خميلة من الأشجار استطاعا على عشها أن يتخذا لهما مائدة عوضاً عن رمال الشاطىء. لأنها لم تتناول الفطور انكبّت على التهام ما أمامها من سندويشات قليلة، لكنها سرعان ما أصيبت بالدهشة حين أخرج مادوك مطبخاً كاملاً من برّاد الثلج الذي كان معه، ولم يتمالك هو كذلك من الضحك حين لاحظ لهفتها إلى الطعام:

ـ أيروق لك هذا، أيتها الطفلة الشرهة؟ إنه طعام حضرته لنا السيدة بونيس ولكنك لم تلاحظي أنها وضعته هنا.

أحست بسعادة غامرة أنستها مناداته لها بالطفلة. فقد كان الدجاج متعة نادرة لها، فهي لم تتزوج مادوك إلا منذ وقت غير طويل وعليه لم تعتد بعد على أطباق كهذه. قال لها:

ـ لاحظت أنك لم تتناولي الفطور وقد استغربت قدرتك على تحمل الجوع حتى الآن؟

أحست أنها مقطوعة الأنفاس لأنّ عينيه راحتا تطوفان عليها وكأنهما تسألانها عما إذا كانت تذكر ما حدث بالأمس.

تمتمت بضعف، وقلبها يخفق لاهتمامه:

ـ أنا.. لم أكن جائعة.

التفت مادوك ثانية إلى البرّاد الصغير فأخرج منه خبزاً طُهي في المنزل مع الزبدة، وبضعة زجاجات من المرطبات. قال بوقار وقد

اتسعت عيناها:

ـ ألم تعرفي أنك تزوجتِ من رجل ذكي وماهر؟

نظرت إليه تهيىء نفسها لرد حاد ولكنها لاحظت أنه يمزح.. فتساءلت بينها وبين نفسها عما قد يقول، إن قالت له إنها مستعدة أن تعيش معه على هذه الجزيرة إلى الأبد شرط أن يحبها. وهي عندئذ لن تهتم سواء أكان ذكياً أم غبياً؟

* * *

٨ ـ ليته يعلم!

ما إن امتلأت معدتاهما بالطعام الطيب والشراب اللذيذ، حتى غطا في نوم عميق، فالطقس الحار والحركة التي قاما بها في البحر، نكأتها وجعلا موريتا تستلقي على العشب مغمضة العينين.

عندما استيقظت وجدت نفسها بين ذراعي مادوك. كان كل شيء حتى الأشجار ساكناً صامتاً، وهذا الصمت والهدوء جعلاها تحسّ بأنها ما تزال تحلم. كان وجه مادوك يبدو سابحاً في الضباب فوق رأسها، والعشب تحتها ناعماً طرياً كفراش وثير. فأحست بالرضى خاصة عندما راح مادوك يمسح خصلات شعرها ولكن حركات أصابعه كانت في هذه المرة في غاية اللطف. تمتم:

ـ أما زلت متعبة؟

ـ لا..

رافق ردّها ابتسامة حالمة ولكنها لم تكن تعي حتى الآن مدى تلاصقهما. لم يتردد كثيراً في إحناء رأسه ليقبلها فاستيقظت من سكونها ملتهبة وجنتيها مدركة فجأة ما يجري. ربما لأنها لم تدفعه عنها، كانت تدعوه، والأمر عائد لها حتى توقف ما يجري قبل أن يمضي بعيداً. لقد تزوجها لمصلحته، ولأسباب مخطئة، وستكون مجنونة إن استسلمت إليه وبرضاها.

أشاحت بوجهها عنه وأطبقت شفتيها متمتمة:

ـ لا!

ـ انظري إليّ موريتا!

حاولت المقاومة، لكن ذراعيه اشتدتا حولها فبعثتا إليها لهيباً كالنار سرى في جسدها. أغمضت عينيها ثانية، حتى أحست أن مشاعرها قد تحركت، وأنها أصبحت جاهزة لتذوب معه وفيه. على أي حال، كان تفكيرها قد خسر المعركة أمام جسدها، الذي فضح ما لم تستطع التعبير عنه بالكلمات وقد أوشكت على أن تصيح بما يعتمل في نفسها لولا تماسكها.

مرّ وقت طويل قبل أن يتركها ساعياً إلى لملمة بقايا طعامهما موضياً الأغراض في براد الثلج. بدا لها متجهماً قاسياً فارتجفت ودون أن تعرف ماذا تفعل، وقفت، وتقدمت منه تلثمه على خده شاكرة.

ولكن تصرفها كان غلطة فقد انتفض مبتعداً عنها وعيناه تبرقان كراهية:

- ما سبب هذا التصرف؟

أحست كأنه لطمها على وجهها:

- أنا آسفة.

- لا بأس، لا تهتمي.. الوقت متأخر، ومن الأفضل أن نعود إلى اليخت

هزت رأسها مكتئبة، ثم شرعت تلملم زجاجات المرطبات الفارغة، قبل أن تتوجه إلى الشاطىء.

تلك الليلة، أعادها ثانية إلى الجو الحالم الحميم الذي شعرت به على الجزيرة، لكنه فيما بعد، عاد إلى سريره المعلّق فتساءلت عما فعلته حتى يتركها فجأة هكذا لأنها أصلاً لم تسمح له بملامستها راغبة، ولم يكن رفضها عائداً إلى كرهها له.

استيقظت صباحاً فوجدته يجلس قربها على السرير الخشبي. بذلت جهدها لمنع يديها من الالتفاف حول عنقه وفكرت في أنها إن

بقيت ساعات أخرى على هذا الوضع فقد تعترف له بحبها، وشكّت في أن يكون هذا هدفه. ترى أيكون هدفه الوصول إلى النصر النهائي ليسخر منها؟

- لا!

كان يخفض رأسه باتجاهها، فرفعه ورفع معه حاجبيه:

- لا؟ كوني واثقة مما ترفضين يا فتاتي.. فأنا لا أفرض نفسي حيث لا أكون مرغوباً.. قد تشعرين يوماً بالحرمان.

لم تكن قادرة الآن على التراجع.. إنه يلمح إلى أنه متى امتلكها روحاً وجسداً ستعجز عن الاستغناء عنه.

ردت عليه بوحشية:

- أرفض أن أكون هدفاً جسدياً.

وقف:

- افعلي ما شئت.

خرج ليتركها تفكر يائسة باللحظات التي كانت ستكون لها لولا تسرعها بالرفض.

أمضيا الأسبوع في الإبحار والسباحة والاستلقاء تحت أشعة الشمس، ولكنه في هذا الوقت كله لم يحاول لمسها.

وسرعان ما بدأت تفهم ما كان يعني حين تحدث عن مشاعر الحرمان.. كانت تتوق أحياناً إلى ذراعيه وكانت في أحيان أخرى تجد صعوبة في منع نفسها من الارتماء عليه. لذا حمدته على قوة احتماله بالابتعاد عنها

في الليلة التي سبقت عودتهما التفتت إليه وقد أحست إن بقي بعيداً عنها أكثر من هذا فستصاب بالجنون. قالت له باضطراب

- مادوك.. ليس عليك أن تشعر بالغيرة من رجال آخرين فليس في حياتي أحد...

ـ الغيرة؟

ـ أوه.. أرجوك.. لم أكن أعني هذا.. صدقاً.. لكنني أظنك مؤمناً بأنني كنت عابثة.

ـ ما عدت قادراً على الإيمان بذلك بعد ما اكتشفت العكس، بل لم أعد مقتنعاً بذلك الرجل حتى. أتصور أنك كنت قد بدأت تشعرين بشيء وتحاولين تجربته.. وهذا ما لا يصعب غفرانه.

ـ إذن لماذا...؟

نظر إليها ببرود.

ـ لماذا تكرهني إلى هذا الحد؟

ردّ بخشونة:

ـ لا أكرهك بسبب الرجال بل بسبب كارمن... أتتوقعين مني أن أنسى ما فعلته بها؟ التجربة شيء وتعمد القسوة التي تقود إلى الكارثة شيء آخر!

تقدمت إليه خطوة ثم وقفت:

ـ مادوك.. أنا آسفة!

ارتفعت كتفاه بقبول ساخر قبل أن يدير لها ظهره وقال:

ـ يجب أن تساعدي كارمن.

ـ لا تريدني.

ـ عليك المساعدة وإن كانت ترفضك، أما بالنسبة للمنزل فلك أن تفعلي فيه ما تريدين.

ـ أحبه على حاله لذا لا أريد تغييره.

ـ كانت الزهور التي رأيتها يوم الرفاف تغطي أشياء كثيرة.. ولكن عند عودتنا لن تجدي شيئاً منها.

ارتجفت مورينا، فقد كانت تعلم أن هناك معنى خفياً في كلامه. سألت:

ـ ألا تستطيع شراءها؟

ـ قد أفعل أحياناً مخصصاً ما أشتريه للطابق السفلي.

ـ للتوفير؟

ـ جزئياً. قد يفيدنا أن يظننا الناس سعيدين.

كانت ما تزال مرتجفة من سخريته حين وصلا في اليوم التالي إلى المزرعة.. ولأن مادوك كان مشغولاً بالحديث مع السائق، لم يلاحظ شحوبها. عندما أصبحا داخل المنزل تبين لهما أن كارمن وأنجيس تتناولان الشاي عند الجيران.

ضحكت السيدة بونيس لهما وكان تعلقها بالعروس الشابة بيناً ظاهراً. وفيما كانت تقدم الشاي للعروسين تساءلت عما إذا استمتعا بالرحلة فأجابت مورينا بنعم، أما مادوك فامتنع عن الحديث رافضاً في الوقت نفسه الشاي الذي قدمته طالباً منها الاتصال بوكيله ديزمان.

التفتت مورينا إليها تسأل:

ـ هل والدي على ما يرام سيدة بونيس؟

صاح مادوك غاضباً:

ـ لم نغب إلا أسبوعاً مورينا! تعالي سأصحبك إلى غرفتك.

في أعلى السلم ترك يدها، فلحقت به متجهمة. حين لاحظت أن ما عناه بغرفتها كان في الواقع غرفته، ترددت مضطربة، واتسعت عيناها وهي تهمس:

ـ ليس فيها سوى سرير واحد.. لماذا توقفت هنا؟

ـ لأنها غرفتك التي ستنامين فيها معي.

صاحت:

ـ لا!

ـ بلى..

ورفعها بخشونة بين ذراعيه يرميها فوق السرير.

ـ أتريدين إثباتاً آخر؟

ارتدّت إلى الوراء مذعورة، ثم نظرت إليه تكافح لتتنفس:

ـ أنا.. أنا.. ظننتك لا تريدني قربك.

ـ ليس تماماً. أريد منك أن تكوني دائماً تحت ناظري، لأنني أخشى أن تتسللي في منتصف الليل.

سألته بارتباك كامل:

ـ وإلى أين أذهب؟

ـ من يعلم؟

بدأ يفكُّ أزرار قميصه، فهمست بخوف:

ـ ماذا تفعل؟

ـ سأنام معك، لئلا أفسح مجالاً للألسنة بأن تلوك علاقتنا.

خاصة منها لسان السيدة بونيس.

ـ لن تفعل!

ـ لولا وضعنا الشاذ لما تركتك تنزلين لتناول العشاء. سأراك فيما بعد.

بعدما غادر الغرفة جلست محتبية أمام طاولة الزينة.

لولا وضعنا الشاذ؟

مشّطت شعرها ببطء ثم لحقت به متوقعة أن ينتظرها ليتناول معها الشاي ولكنها لم تجده فشعرت بالبهجة. بعد ساعة عادت كارمن وأنجيس فقالت الأخيرة بعدما قبّلت مورينا:

ـ غادرنا باكراً. لم تكن كارمن بخير.

لكن ذلك لم يؤثر في حدة وسلاطة لسانها. فحين خرجت أنجيس لتغير ملابسها قبل العشاء، لم تضيع كارمن الوقت لتعلن أنها غير مستعدة للتخلي عن دورها كسيدة للمنزل:

ـ سيتلقى الخدم ما بقيت هنا أوامري أنا. هذا ما أفهمتهم إياه.

ـ لكن مادوك يتوقع مني إلقاء الأوامر.

ـ إن أراد ذلك فقولي له إنك لا تريدين حمل المسؤولية!

ـ ربما أريد..

ـ لن أجادلك.. إنما احذرك إن تجاوزتني، فسرعان ما ستكتشفين إلى جانب من يقف مادوك!

حين أعلنت كارمن أنها دعت الإخوة روسيل إلى العشاء في اليوم التالي، قطب مادوك جبينه لكنه لم يقل شيئاً. أما مورينا فلم تستطع فهم الدافع الذي جعل كارمن تضيف أنهما سيمكثان في المزرعة أياماً. وحين ابتسم مادوك ثانية عرفت مدى شوق مادوك إلى رؤية كارينا ثانية.

استيقظت باكراً في الصباح، وقررت البدء بالعمل في المنزل أولاً على أن تذهب لاحقاً إلى منزل والدها هذا إن لم يعترض مادوك. دهشت حينما وجدته يتناول الفطور، كان يبدو وسيماً نشيطاً، حتى أحست بضعف في أطرافها ووهن. فرفف يقول:

ـ تبدين مرتجفة. اجلسي.

سحب لها الكرسي لتجلس، وقبل أن تجلس التفتت إليه، لكنها سرعان ما شهقت بحدة عندما رأت عينيه تلمعان. فحاولت إشاحة نظرها عنه ولكن نبضاتها تسارعت. وما هي إلا لحظة حتى ترك الكرسي ليحتويها بين ذراعيه، فلم تحاول تجنبه بل تزايد خفقان قلبها.. وفيما كانت مرتجفة انسلّت يداها إلى صدره لتمسك بمؤخرة عنقه. كان شعره الكثّ مبللاً، فدفنت أصابعها في عمقه. احتواها بشغف حتى أصبح جسدها كله حباً يكاد يذوب بين ذراعيه.

تراجع قليلاً إلى الوراء.. وقال بصوت أجشّ:

ـ كنت نائمة حين جئت من الخارج ليلة أمس. ولا عجب أنني

أشعر بالتعب بعدما أمضيت ساعات في تأملك أثناء نومك. أما أنت فلم يرفّ لك جفن.

لكن جسمها رفا الآن، وأحست بهما ثقيلين، فلم تستطع رفعهما لتنظر إليه... أيحاول أن يقول إنه يريدها؟ أم يقول ما يقول لتلبيتها فحسب؟

تمتم:

ـ أترغبين في العودة إلى الفراش؟

سمعا طقطقة أكواب القهوة في الردهة، تبعها دخول السيدة بونيس التي لم تخرج عندما وجدت أحدهما يبتعد عن الآخر بامتعاض وتردد. جلست موريا بسرعة سعياً إلى لملمة عدتها للرد على تحية الصباح.

بعد خروج المرأة، لم يحاول مادوك ضمّها إلى ذراعيه ثانية، بل عاد إلى كرسيه ببرودة جعلتها تتساءل عما إذا كان يلعب معها لعبة من نوع ما.

جاهدت لالتقاط شتات نفسها وتمنت لو يظهر صوتها هادئاً حينما قالت له إنها تفكر في زيارة والدها، وحينما لم يعترض أحست بالدهشة.

ـ متى ستذهبين؟

ـ بعد الظهر... أفكر أن اقنع كارمن بالسباحة علّ ذلك يفيدها.

ـ عظيم مادمت لا تتآمرين عليها... فهي فتاة حساسة.

ـ وأنا فتاة حساسة أيضاً!

تركت كارمن المجال لموريا لإقناعها بالجلوس تحت الشمس قائلة إنها قد تجرب السباحة فيما بعد... وبعد أن جعلت موريا تركض طوال اليوم وكأنها عبدتها، تأمرها من هنا وهناك... تمددت الآن على كرسي اليوم تتمتع بالشمس...

أخيراً، وجدت موريا أن كارمن لن تقاوم السباحة إذا شاهدتها تسبح، فغطست في الماء وسبحت عدة مرات جيئة وذهاباً قبل أن تتسلق ثانية... لاحظت بغبطة أن كارمن تركت مقعدها فقالت مشجعة:

ـ هل أنت قادمة؟

لم يسهل عليها الابتسام في وجهها المتجهم... ولكن ما استغربت موريا أن هذه المرأة دفعت شعرها جانباً ثم رمت نفسها جانبياً في الماء صائحة. في هذا الوقت أطلّ مادوك من خلف المنزل فنظرت إليه موريا مذعورة ثم رمت نفسها في الماء خلف كارمن المستنجدة، وسارعت تضع يدها حول عنقها لتساعدها، ولكن تلك المرأة شهقت بحدة ودفعتها عنها تنظر إليها بشراسة قبل أن تستدير إلى شقيقها:

ـ ألم ترَ كيف دفعتني؟

أسكتها مادوك بلطف ثم أخرجها من الماء فتمسكت به بشدة مدعية الذعر!

ـ ولمَ تفعل هذا كارمن؟

ارتفع صوتها بهستيرية:

ـ ربما لأن موري قادم الليلة وهي تود أن تراني طريحة الفراش، لتحتكره لنفسها... لقد طرحت الكثير من الأسئلة عنه!

سرعان ما اشتدّ غم مادوك ولكن لم يلبث أن تناول منشفة ولفّها حول شقيقته المرتجفة وقال:

ـ لا تقلقي، سأكون هنا لأتأكد أن ما حدث لن يتكرر

نظر من فوق رأس شقيقته إلى موريا التي اعتصر قلبها بسبب هذا الاتهام الموجه إليها. إنها لا تكره كارمن إلا بسبب ما فعلته وتفعله بها، وليس العكس كما تحاول أن توحي

بعد الغداء، الذي غابت عنه كارمن.. خرجت موريتا لزيارة غاريت، وكان مادوك قد أرسل من يوصلها ويعيدها. لكن موريتا لم تكن تريد أن ينتظرها أحد بل تود قضاء العصر في منزلها القديم طلباً للراحة. فالوضع المتأزم يهدد سلامة عقلها، وعليه هي بأمسّ الحاجة للابتعاد ولو لبرهة. أسرعت أنجيس لتتدخل قائلة:

ـ لن يحضر الاخوان روسيل قبل المساء عزيزي كما أن كارمن اهتمت بكل شيء.

كانت أنجيس تقصد الخير.. ربما تحب ابنة أخيها، لكنها ليست عمياء عن مساوئها كما الحال مع مادوك. لذا كانت في بعض الأحيان تشدّ أزر موريتا خاصة عندما تتمادى كارمن كثيراً. لكنها لم تكن تعلم أنها لا تساعدها هذه المرة، فقد قال مادوك بشراسة:

ـ ألم يحن الوقت لتتولى أمور البيت؟ عليها كونها زوجتي تحمل مسؤوليات محددة.

لم ترغب موريتا في الدخول بجدال عقيم لذلك هزّت رأسها دون أن ترد. لكنها كانت تعلم أنه لن يترك الأمر عند هذا الحد. وعلى الرغم من استعدادها لتحمل غضبه داخل خلوة غرفة النوم، لم تكن مستعدة للتعرض إليه لتتفرج عليها أنجيس!

حالما رأى غاريت ابنته غلا وجهه الفرح وما أذهلها رؤيتها له أكثر نشاطاً. بدا لها أصغر عمراً، وأكثر صحة، ثيابه التي اعتاد أن يرميها هنا وهناك وكأنها خرق بالية أصبحت أنظف وأكثر ترتيباً. كان عليها أن تذكر نفسها أن غيابها لم يطل سوى أسبوع ولكن المنزل كان نظيفاً والغريب أن والدها بدأ يرسم من جديد. ابتسم شارحاً:

ـ لقد بدأت منذ قليل بالرسم. وما أريد رسمه هو منظر بحري ليست واثقاً منه حتى الآن.

لكنها صاحت حين شاهدت ما رسم:

ـ أوه يا أبي.. لا أصدق هذا!

ضحك وعيناه تلمعان ببريق فلم تكن لتصدق أنها ستراه هناك مرة أخرى..

عبس ينظر إليها بحدة.. وكأنه لاحظ فجأة أنها أنحف وأكثر شحوباً:

ـ كيف كان شهر عسلك؟

أقنعته بأنه كان رائعاً، فقطب مجدداً:

ـ السبب إذن كارمن.

ـ أوه.. إنها في بعض الأوقات طيبة، وفي أخرى سيئة.

ـ هذا ما ظننته.. أستطيع القول إن تلك الفتاة بحاجة إلى طبيب نفسي، أكثر من أي شيء آخر.

ـ سأكون بخير يا أبي.. لا تقلق.

ـ لست قلقاً عليها.. بل عليك. إن لامرأة ككارمن تأثيراً مؤذياً لكن ما دام مادوك موجود فلن يصيبك أذى لأنه لن يسمح بذلك.

آه ليته يعلم!

• • •

٩ ـ رجل من الماضي

عصت موريتا أوامر مادوك وأرسلت السائق فور وصولها طالبة منه العودة لاصطحابها في الخامسة. . لذا حين شاهدت مادوك قادماً لاصطحابها ذعرت.

بعدما تحدث إلى غاريت فترة وجيزة قال إن عليهما الذهاب لأنه يتوقع وصول ضيوف. . فسارع غاريت يقول له بطريقة شبه جدية:

ـ موريتا شاحبة متوترة. . فهل كنت تضربها يا رجل؟

ردّ مادوك اللهجة نفسها:

ـ أحياناً أتمنى لو أضربها.

فضحك غاريت.

ـ كم تشتكين له؟

سألها مادوك وهما في طريق العودة.

ـ ممّ عليّ أن أشكو؟

ـ سؤال أستطيع بسهولة الإجابة عنه. «لا شيء»!

حاولت تغيير دفة الموضوع.

ـ متى يصل الضيوف؟

ونجحت، فقد انطلق بقوة ثم قال:

ـ قلت لي إنك لا تهتمين برجال آخرين.

ـ هذا صحيح

ـ لكنك لم تنكري حين قالت كارمن إنك كنت تسألين عن موري روسيل!

ـ لا أنكر. لكن سؤالي لم يكن كما تعتقد. كنت أحاول إثارة

اهتمام كارمن به، لا أن أعبّر عن اهتمامي به. ذكرت لي إنه يعجبها فخلتُ حديثي عنه يساعدها.

ـ هكذا إذن. . .

ـ كما إنني لم أدفع كارمن إلى الماء وهذا ما تعرفه. لم ألمسها حتى.

هزّ كتفيه دون أن يعترف بغلط شقيقته، فبدا كأنه غير راغب في مناقشة الأمر. بعد قليل سألته:

ـ لاحظت أن بضع شاحنات أتت بالماشية في وقت مبكر.

ـ سأربي الماشية، إضافة إلى زيادة زراعة قصب السكر.

حاولت إكمال الحديث:

ـ وهل ستحتفظ بنيمن ديزمان في خدمتك ما دمت مستقراً في الجزيرة؟

ـ في الوقت الحاضر. . . فأمامي عمل جمّ وقد أحتاج إلى من يدير المزرعة حين أضطرُّ إلى السفر. . . ديزمان يوشك أن يبلغ سن التقاعد، وهذا ما يناسبني تماماً.

وصل الأخوان روسيل، عندما كان يدلان ثيابهما للعشاء. فأنهى مادوك لباسه بسرعة ونزل ليرحب بهما. أما هي فاستغلّت فرصة غيابه لتختار فستاناً أبيض أنيق، لم يسبق أن ارتدته. عندما كانت تراقب نفسها في المرآة لاحظت أنه غيّر مظهرها كله. . كانت تشعر لا إرادياً أن عليها منافسة كارينا روسيل.

الصمت الفوري الذي طالعها وهي واقفة في باب غرفة الجلوس أقنعها أنها أعطت الانطباع المطلوب. لكنها علمت أنها ارتكبت غلطة حين لاح لها بريق عيني موري. غير أن مادوك كان مستعداً بذكاء للتعامل مع أي أمل قد ينبعث حياً في نفسه، فما هي إلا خطوة سريعة حتى أصبح إلى جانبها، يجذبها إليه معانقاً. قال متصنعاً

المزاح:

ـ يجب أن تعذرونا.. فنحن عريسان جديدان

ثم التفت إليها قائلاً بحيط:

ـ ألم تجدي ما هو أقل إخراجاً من هذا؟

على الرغم من عدائية كارمن وكارينا الظاهرة، وعيني مادوك العاشقتين، ونظرة نيمن ديزمان الودود صارت الأمسية بمرح. كان مادوك ينعمها بالعبث مع الرجال، لكن على ما يبدو لا يجد غضاضة في أن تنظر النساء إليه. وقد حدث أن لاحظته متجاوباً لنظرة كارينا وحركات يديها.

حاولت كارمن طوال الأمسية جذب اهتمام موري إليها. وكانت موريا قد لاحظت أنهما فعلاً منجذبان لبعضهما بعضاً. عندها تساءلت هل ستخبره كارمن بعلاقتها بأرغون غارسيا؟ نعم موري منفتح على الحياة، إنما ما زال الرجال حتى في المجتمعات الغربية يتوقعون الزواج من العذارى وعليه قد يكون موري غير مستعد لتحمل خداع كارمن له. إذن لو طلب يدها وقبلت الزواج به لتلاشى كل أمل في الاعتراف بالحقيقة الكاملة.

حين أخلدت إلى غرفتها، كانت تتوقع أن يتأخر مادوك في المجيء، لكنه لحق بها فوراً تقريباً. فخفق قلبها في عظام صدرها حين سمعته يغلق الباب. كان لدوران المفتاح صوت غريب ليس له علاقة بالفعل ذاته.. فهذه هي المرة الأولى التي يقفل فيها الباب منذ عودتهما من شهر العسل.

توقعت وهي تقف قرب طاولة الزينة أن يتقدم ليغير ثيابه، لكنه جلس على حافة السرير قائلاً:

ـ تابي.. لا تهتمي بي، ولا تدّعي الخجل.

تمتمت:

ـ كنت سأغتسل لذا أدهشتني رؤيتك هنا بهذه السرعة.. هذا كل شيء.

ـ تجاوز الوقت منتصف الليل أما الدهشة فلم أتهمك بها.

ـ فكرت فقط...

ـ حسناً لا تفكري في شيء.. ادخلي واستحمي.. سأنضم بعدك.

عندما انتهت من الاغتسال ارتدت ثيابها وتركت لدموعها العنان. فجأة أحست بمادوك قربها. لم تكد أولى كلمات الاحتجاج تبلغ شفتيها لأنه أصمتها بعناقه حتى كادت تشهق طلباً للتنفس.. كانت تسمع ضجيج خفقات قلبه وكان قربُهُ يحرقها وكأنه آثون مصمم على حرمانها من أي تفكير لذا ضاعت في مشاعرها بحيث لم تعد تسمع سوى ضربات قلبها المتناغمة مع ضربات قلبه.. عندما أبعدها قليلاً عنه فتحت عينيها ببطء تنظر إليه، فسمعته يقول بصوت أجش:

ـ تبدين في السابعة عشرة.

همست:

ـ ولماذا أنت هنا؟

ـ وهل عليّ أن أردّ على هذا السؤال؟

ـ لم أتوقع...

قاطعها:

ـ أليس هذا أفضل من المناوشات العادية التي يقول فيها الناس ما لا يريدون قوله؟

ـ أتصدق هذا حقاً؟

ـ تحب النساء سماع كلمات الحب من الرجال، مع إنهن يعرفن أن هذا الكلام المعسول في مثل تلك اللحظة غير صحيح

ردت مضطربة:

ـ لكنني لا أقتنع بسهولة.

وحملها إلى السرير دون أن يردّ، وجلس قربها فحاولت تجنبه بضعف.. ثم تلاشت مقاومتها...

بقي الأخوان روسيل يومين آخرين عرفت من خلالهما مورينا أن كارمن دعتهما لرؤيتها في إيلامها. لكنها سرعان ما استنتجت أنها قد تكون مخطئة، وأن كارمن فعلاً تقع في الحب، وقد فهمت شعور كارمن لأنها أيضاً واقعة في الحب..؟

بعد رحيلهما، مالت كارمن للنكد، ولاذت بالصمت. بدت وكأن أموراً كثيرة تشغل بالها، فاستنتجت مورينا أنها تفكر في موري، مع ذلك فتصرّفها كله حيّرها.. كانت قد ظنّت أنها وقعت في الحب، لكنها الآن تشك في هذا، فقد وجدتها مع طلة كل يوم أشرس من ذي قبل وظلت بصورة متواصلة تختلق المشاكل وكأنها مصممة على جلب البؤس إلى حياة مورينا.

نسيت بانغماسها في شرورها إدارة المنزل الذي وقعت إدارته على كاهل مورينا. كانت مورينا سعيدة بدورها، ولكن هذه المسؤولية كانت ثقيلة عليها لذا أخذت تشحب وتشحب حتى خسرت كيلوين من وزنها لأنها لم تكن تأخذ قسطاً من الراحة في النوم.

تمكنت مورينا بمساعدة مهندس ديكور بارع استخدمته أنجيس من تغيير الطابق السفلي كله.. في هذه المرحلة قررت كارمن الذهاب لزيارة عائلة روسيل، رافضة البقاء «والمنزل يتحطم» بحسب تعبيرها. لكن مورينا عرفت أن دافعها الحقيقي هو الاستجابة لدعوات موري المتكررة عبر الهاتف.

أقلّها مادوك ومورينا التي ذهبت معهما على مضض. كان يقع

منزل آل روسيل على سفوح تلال باردة خارج سان خوان. عندما ترجلت كارمن من السيارة لوّحا لها وابتعدا ولأن مورينا لم ترغب في التبضع اصطحبها إلى مكاتب الشركة التي يزورها. وما أدهشها أن معظم الموظفين في تلك الشركة الكبيرة يعرفونه خير معرفة، ولكنه تكتم حين سألته وهما عائدان واكتفى بأن قال إن له بضعة أسهم في الشركة وإنه أحد أعضاء مجلس الإدارة.

أذهلت هذه المعلومات مورينا، وهي تفسر سبب زياراته المتكررة إلى سان خوان.. إنها لا تستثني رغبته في زيارة كارينا، ولكن هذه المعرفة جعلتها أفضل حالاً.

تناولا معاً طعام العشاء وكان خلاله مادوك مرحاً بطريقة لم تتوقعها فتساءلت بحزن عما إذا كان قد بدأ يسامحها. إنها تحمد الله.. لأنها تنعم بدفئه وحبه ولطفه.

مرّ يومان وهي في سعادة كاملة معه... في الصباح الثالث كانت تنهي ارتداء ملابسها لتنزل إلى الفطور حين عاد إلى غرفة النوم. فقالت له بسرعة:

ـ لن أتأخر.

لكنه لم يرد، بل نظر إليها ببرود:

ـ أتذكرين القرطين اللذين أهديتك إياهما؟ قلت لي إنك بعتهما وأتساءل ما إذا كنت يوماً ستقولين لي الحقيقة مورينا.

همست وقد ابيضّ وجهها:

ـ ماذا تعني؟

لم يحاول المراوغة بل قال بصوت أجش:

ـ وضعت أزرار قميصي هنا ليلة أمس. وفي الصباح حين حاولت استردادها وقع أحدهما في درجك. ولكي أستعيده كان عليّ أن أفتح الدرج فرأيت فيه القرطين اللذين أهديتك إياهما في عيد

ميلادك الثامن عشر.

لم تكن قيمتهما المادية أو العاطفية ما جعله يغضب بل اعتقاده أنها تتعمد الخداع والكذب عليه.

كان التناغم والانسجام بينهما أجود من أن يستمر. ففكرت بمرارة أنه كان عليها أن تعرف أن شيئاً ما سيشتت لها سعادتها.. كيف تفسر له أنها استخدمت القرط بتهور طائش لإيلامه لأنه كان السلاح الوحيد في يدها وقتذاك؟

- لقد تظاهرت أنني بعته لأؤلمك.. لأنك..

قاطعها بغضب:

- أولم تؤلميني بما فيه الكفاية حتى الآن؟

- لا تلمني على الأرض! أعرف أنك كنت مضطراً لأخذها ولم يكن الذنب ذنبي إن كنت لا تملك مالاً لدفع ثمنها. كما لا يمكن أن أكون أسوأ من الفتاة التي رفضت الزواج بك بسبب فقرك.

- ومن أخبرك عنها؟

وأدركت فجأة أنها فضحت ما قالته لها كارمن فقالت:

- نسيت.

- لا بأس، ليس للأمر قيمة الآن، بل الأهم هو كذبك الذي ينطبق على كل شيء.. أظن أننا بحاجة إلى الافتراق لوقت ما.

شحب وجهها:

- نفترق؟

- لا أعني ذلك الفراق.. سأبقى طوال اليوم في الخارج ولن أحضر للعشاء، ومنذ الآن فصاعداً أنام في الغرفة المجاورة.

جلست بائسة على السرير محنية الرأس تتمتم:

- إذا كان هذا ما تريد..؟

مر الصباح ثقيلاً على الرغم من رفقة أنجيس المحببة.

عندما قالت أنجيس انها ستنام قالت موريتا إنها ستذهب لرؤية غاريت.

لم يكن يتعبها السير الطويل عادة حتى في القيظ لذلك دهشت عندما وصلت إلى منزل والدها مرهقة وكأن حملاً ثقيلاً على كتفيها يجعلها تشعر بالمرض.

وجدته في مرسمه يعمل، فأطلت برأسها من الباب:

- مرحباً أبي!

نظر من فوق كتفه، فبانت الراحة على وجهه لسروره بوجودها

- أوه.. هذا أنت؟

- ما هذا الترحيب؟

- ما خطبك؟

- لا.. لا شيء، ألا أستطيع زيارة والدي دون سبب؟

قطب جبينه ساخطاً، فابتسمت:

- آسفة أبي، لم أقصد توبيخك.. أنت على حق كان مزاجي سيئاً فجئت إليك لأتخلص منه.

- لعلي لا أكون السبب. أين مادوك؟

- مسافر.

- آه.. هذا يفسر كل شيء! لكنه سيعود.

- اسمع أبي.. أرى أنك مشغول، لذلك سأعد كوب ليموناضة وأتوجه إلى الشاطىء.. فإن أنهيت عملك استدعني لتناول الشاي.

- عظيم.. أريد إنهاء هذه، لماذا لا تعدين القهوة؟ فأنعم بفنجان من يدك؟

بعد أن أعطته فنجانه جلست ترتشف فنجانها على الشرفة المسقوفة.. وما أدهشها شعورها بالراحة لأن والدها عرف مدى حاجتها إليه

بعد ساعة قررت البحث عن المايوه القديم لتتكاسل على الشاطىء. فالبحر بأمواجه المتكسرة على الرمال المرجانية البيضاء يبدو لها مغرياً . وهذا ما تفتقد إليه في المزرعة.

سارت حتى مكانها المفضل على الشاطىء فسبحت فيه مدة ساعة قبل أن تخرج. وفيما كانت تتقدم في السير على الرمال، ظنّت أن الرجل القادم من بين الأشجار مادوك.. فغاص قلبها لأنه حذّرها من السباحة وحدها فخافت لأنها لا تعرف كيف تواجه غضبه مرتين في يوم واحد. ولكنها صدمت عندما وجدت أن الرجل القادم شخص آخر غير مادوك: إنه أرغون غارسيا.

ـ مرحباً موريتا.. انتظرت طويلاً حتى رأيتك.

ـ سيد غارسيا؟

ـ هيا.. لماذا لا تسألين؟

ـ أسأل ماذا؟

ـ ماذا أفعل هنا؟ إنه السؤال التقليدي

ـ نعم. ماذا تفعل؟

ـ كان يجب أن أراك.. بخصوص كارمن.

ـ إنها غائبة.

ـ سمعت هذا.. أين هي؟

ـ أخشى أنني لا أستطيع أن أرشدك.

ـ لا تستطيعين أم لا تريدين؟ سمعت بخبر زواجك. لقد أحسنت صنيعاً موريتا الصغيرة عندما أوقعته في حبائلك. فلماذا تنكرين عليّ الحق نفسه؟

التقطت منشفتها وفكرت في أن كارمن ستكون أفضل حالاً بدونه.

ـ لن أصغي لإهاناتك!

لكنه وقف في وجهها:

ـ موريتا أنا آسف. لم أكن أقصد ما قلته. أحتاج إلى مساعدتك لا إلى حقدك، أنا هنا منذ أيام أحاول ملاقاتها، وقد حاولت حتى أرهقت أعصابي فقررت أن أجدك لكن حين عرفت أنك تزوجت، لم أجرؤ على الاقتراب من المزرعة.

ـ ألا تظن أن الوقت متأخر؟

ـ ما زلت أحبها.

ـ لك طريقة غريبة في إظهار حبك! لقد هجرتها، تاركاً إياها تتدبر أمر نفسها بعد الحادثة. آه لا أستطيع أن أصدق أن هذا هو الحب!

ـ وكيف عرفت بهذا؟

ـ أخبرتني كارمن.

ـ لم تكن غلطتي.. ولماذا تخبرك وهي من كانت تخشى أن يعرف أحد بالأمر... كنا هاربين.. هل أخبرتك بذلك؟ طردني مادوك فعرفنا أننا لن نحظى بعطفه. عندما عرفت خبر طردي كادت تجن، فطلبت الهرب لكن ما حدث أنني أثناء الهرب قدتُ بسرعة لم ترضى عنها فراحت تحثني وتحثني على السرعة حتى اصطدمت السيارة فعلقت ساقاها، وعندما حدث ما حدث طلبت مني الابتعاد ولم تسمح لي البقاء قائلة إن مادوك سيقتلني سواء أكانت مصابة أو لا. ثم إذا كانت مصابة فستحتاج إلى مساعدته.. فعليه الاعتناء بها

ـ ألم يكن في وسعك على الأقل...

ـ لا تنظري إليّ على هذا النحو، فلست بطلاً . لقد خفت! فلا مال عندي، ثم إنني أحترم زوجك وأعرف طباعه حين يثور

ـ لماذا عدت إذن؟

ـ عدت.. لأنني ما زلت أريدها!

١٠ ـ آخر الأحلام

نظرت مورينا إلى أبعد من أرغون.. فرأت من بعيد بضعة سراطين تحوم الرمال، وأسراباً من الطيور تدور في السماء بحثاً عن الطعام. كانت الشمس فوق رأسيهما ترسل أشعتها الحادة، مع ذلك ارتجفت مورينا!

كان أرغون ينتظر عابساً عبوساً أسود فتردد مورينا: ترى أما زالت كارمن تريده؟ لكن كيف لأي شخص إلا كارمن أن يجيب عن هذا السؤال؟ وهل لأحد سواها الحق في القول لأرغون أن يغرب عن وجهها؟ لم تهتم مورينا يوماً بأمر أرغون غارسيا، لكنها كانت تفكر أحياناً في أن مادوك قسا عليه وعلى حبه لكارمن كثيراً.. غير أن كارمن في الثلاثين من العمر وهذا يعني أنها قادرة على معرفة ما تريد. كما أن أرغون لا يخلو من الحسنات.. لكن إن كانت قد وقعت فعلاً في غرام موري روميل، فقد لا ترغب في رؤية أرغون ثانية.. وبسبب الماضي لم تكن مورينا تظن أن كارمن تريد رؤيته بل قد يكون وقع الصدمة عليها سيئاً.

أخيراً قالت بهدوء:

ـ لا أعدك بأن أعلمها.

ـ إذن يجب أن أراها بنفسي.

ـ لا!

لا تستطيع مورينا أن تتحمل هذه المسؤولية! فماذا قد تكون ردة فعل كارمن إن رأته عن غير سابق إنذار؟.. سألته مرتجفة:

ـ أرغون، لِمَ لا تكون صبوراً حتى تعود؟ لا أدري ماذا سأقول

لها، لكنني أعدك أنني سأحاول أن أكتشف ما إذا كانت مهتمة بك.

نظر أرغون إليها بريبة وهو يفكر في الأمر:

ـ عليك مقابلتي إذن لاحقاً لتخبريني بما يحصل.. لكنني لا أستطيع الوثوق بك.

أيجب أن يشك الجميع بأمانتها؟ نظرت إليه بمرارة.

ـ هذه مخاطرة عليك القبول بها، على ما أخشى.. لكن حذار إن كانت كارمن مريضة جداً وما تزال.. أصيبت بجروح بالغة في حادث السيارة الذي هربت منه ولم تشفَ بعد تماماً، لذا توقع ألا يعجبك الردّ الذي ستقوله. اسمع لن أستطيع منعك من الاقتراب منها بنفسك.. فلماذا أكذب عليك؟

ـ عديني بتمهيد الطريق؟

ـ لم أقل إنني سأمهده لك بل قلت إنني سأخبرها بعودتك.

ربما لأن كارمن في الوقت الحاضر غائبة، ولأن لا فكرة لديه عن المكان الذي قد يجدها فيه، وافق على مضض وقال:

ـ أراك بعد أسبوع وفي هذا الوقت يسني لك محادثتها. سأنتظر بعد أسبوع على الطريق خارج المزرعة، فكوني هناك في الموعد حاملة أخباراً جيدة لي.

أحسّت مورينا بغاريت يرميها بنظرات قلقة حين عادت لتناول الشاي معه، لكن بالها أكثر من مشغول، فعودة أرغون صدمتها وأرعبتها في آن معاً. أحست أنها بحاجة ملحّة إلى من تلجأ إليه مع أنها تعلم أن لا أحد يستطيع فعل شيء لها وستكون حمقاء وأنانية إن أقلقت غاريت بمشكلة لا يستطيع فعل أي شيء إزائها.

لم تقل لأرغون إن وزر الحادثة وقع على كاهلها ولو فعلت لوضعت في يده سلاحاً يستخدمه ضدها.. وهو سلاح سيستخدمه مبتزاً إياها إذا ما أصيب بالإحباط. لكن ما تخشاه أن يعلم مادوك

باتصالها به فهو إن علم بالأمر ازداد احتقاراً لها.

عندما خرج مادوك تلك الليلة إلى العشاء أحست موريا بالسرور. كان قد قال إنه سيخرج، لكنها ظنت أنه إنما يهددها ليؤلمها، وحين سمعته يخرج تنفست الصعداء، وكأنها ترفع عن داخلها ذنباً، فلو جلست معه وجهاً لوجه لاستخرج الحقيقة منها. لكنها أملت مع الصباح أن تكون قد استردت شجاعتها، فمهما حدث يجب ألا يشك أنها شاهدت أرغون.

تناولت العشاء مع أنجيس التي راحت تقصّ على مسامعها قصص طفولته.. قالت أنجيس بابتسامة:

ـ نزعة القيادة متجذرة فيه منذ الصغر، كان يعرف ما يريد بالضبط حتى قبل أن يتمكن من المشي. لم يكن والده يدير شؤون العمل بحكمة، ولولا وجود مادوك لآلت الأمور إلى أسوأ مما هي عليه الآن. لديك زوج طيب يا طفلتي. الكثير من النساء كن يرغبن في الزواج به.. لكني كنت أعرف أنه ينتظر الفتاة التي يستطيع أن يحبها. لم تكن السنتان الماضيتان اللتان قضاهما في بريطانيا بالسهولة التي تتصورينها، إذ كان هناك ما يتآكله ولا أدري ما هو ولكني واثقة الآن أنه في غاية السعادة.

لم تشأ موريا أن تكشف لأنجيس خطأ ظنها، وكانت تفكر في أن مادوك غير سعيد حين فاجأتها بالقول إنها ستعود قريباً إلى بريطانيا، فصاحت وهي متأكدة أنها ستفتقدها:

ـ آوه.. ولماذا؟

ـ يجب أن أفقد شؤوني.. لا أظن الآن أن هناك فائدة من البقاء لأجل كارمن

مالت إلى الأمام وكأنها تفضي سراً:

ـ إنها تحب موري روسيل.. وربما من الأفضل أن يتزوجا

وربما أنها تحب الجميع في إنكلترا، فقد تتمكن من تغيير أمر مستقبلها بذهن صافي.

حين عاد مادوك تظاهرت موريا بأنها نائمة. كان الوقت يقارب الفجر وقد وصل متأخراً ربما لأن المسافة من سان خوان إلى المزرعة بعيدة هذا إذا كان قد ذهب إلى هناك. أغمضت عينيها بشدة، لكنها ظلت تراه مع كارينا.. لم يتوقف قرب سريرها، ولو فعل لشاهد الدموع الصامتة وهي تشق طريقاً بين أهدابها المغمضة بشدة. لكنه دخل مباشرة الغرفة المجاورة مغلقاً الباب المشترك.

حاولت ساعة الفطور محادثته بهدوء، لكنها لم تكن تدرك أن الدوائر حول عينيها واضحة وأن الحزن والتجهم مرسوم رسماً. قالت له إن أنجيس تفكر بالسفر:

ـ تعتقد أن من المستحسن المغادرة، لكنني لا أظن كارمن توافق.

ردَّ موافقاً وإن بنفاذ صبر:

ـ سأتصل بكارمن.. ليتك أخبرتني هذا الخبر يوم أمس، فلو أخبرتني به لاصطحبتها معي.

سألته بحذر:

ـ وكيف كانت؟

ردَّ بلا مبالاة، ونظرته تتركز على وجهها الشاحب

ـ جيدة جداً.. وكيف كان غاريت بالأمس؟

ـ وكيف عرفت أنني زرته؟

ـ أخبرتني السيدة بونيس.

ـ كان بصحة جيدة.

أحست بالذعر بسبب تضرّج وجنتيها الذي كان سببه مقابلتها لأرغون. عندما نظر إليها لم تدهش كثيراً.

ـ تبدين كمن ارتكب ذنباً. لماذا؟

ردت بصدق يشوبه إحساسها بالذنب لإخفائها خبر لقائها بأرغون..

ـ لا.. لست كذلك.

ـ طلبت منك عدم التنزه وحيدة على الشاطىء.

ـ كنت بحاجة للتريض.

ـ لا تكرري ذلك ثانية.

نظرت مورينا إلى غطاء الطاولة صامتة متسائلة عما إذا كان من الممكن أن تحس أنها أكثر بؤساً مما هي الآن. وقف شامخاً أمامها، مديد القامة، عريض المنكبين، حتى أحست أنها قزمة أمامه، مع ذلك لم تستطع إلا أن تحس برجولته التي تشغل قلبها. قال ببرود وكأنها غريبة:

ـ أراك فيما بعد.

اتصل بكارمن التي هرعت على الفور إلى المنزل لتودع عمتها. ولكنها حين عادت كان معها موري الذي أعلن خطوبتهما، عندها سافرت أنجيس والفرح يغمرها.

لكن موري لم يستطع البقاء سوى ليلة واحدة بسبب ضغط العمل، فكان أن بقيت كارمن في المنزل.. وشرعت بتحضير لائحة المدعوين لعرسها.. أمضت مورينا يومها معذبة، حائرة كيف تخبرها.

كانت كارمن تتجنبها ولكن بعد ظهر اليوم التالي، قررت مورينا أن تخبرها وتنتهي فتوجهت إلى غرفة الجلوس. كان من المقرر أن تقابل أرغون في اليوم التالي، وإن حدث أن تخلفت حضر هو إلى المزرعة. وإذا حدث هذا، فلن تسامحها كارمن على عدم تحذيرها منه. كانت قد ارتأت أن تمتنع عن إخبار كارمن على أن تذهب

لمقابلة أرغون لإطلاعه على خبر خطوبة كارمن متوسلة حتى يبتعد لئلا يثير المتاعب.. لكن كيف لها أن تتأكد أنه سيقبل الخبر؟ فقد رجحها جانباً ويهرع إلى المزرعة ليواجه كارمن بنفسه.

رفعت كارمن رأسها بحيرة وقالت بنفاذ صبر:

ـ ما الأمر؟

عرفت مورينا أنها لن ترحب بها فتوقفت وفي عينيها القلق:

ـ أريد التحدث إليك كارمن.

ردت بعدة خالية من الكياسة:

ـ ادخلي إذن! لماذا تتوقفين عن التسلل وكأنك شبح.. ألا تعرفين أن مادوك سئمك؟

همست ببؤس:

ـ كيف تتوقعين شيئاً كهذا؟

أجابتها بلؤم:

ـ لديّ عينان.. أنت صغيرة جداً بالنسبة له. سمعت كارينا تقول إن من المؤسف أن يكتشف هذا متأخراً، وقد سمعتها تقول أيضاً إنه يفكر في الطلاق لكنه أي الطلاق يقتضي وقتاً طويلاً

أحست مورينا بالبرودة لأنها خشيت أن تكون كارمن على حق. فالدلائل جميعها تشير إلى أنه يريد التخلص منها وعليه ربما تحدث إلى كارينا عن موضوع الطلاق.

ـ أفضل ألا نتطرق إلى هذا الموضوع.

هزت كارمن كتفيها بلا اكتراث، لكنها أبقت عينيها على وجه مورينا الشاحب، فبدا أن وجهها كذلك فقد بعض لونه. قالت مترددة:

ـ مورينا...!

لكن مورينا لم تسمع ما في صوتها من أثر ندم متردد. كانت

تريد أن تقول ما عليها قوله وتنتهي. . فقاطعتها:

ـ شاهدت أرغون غارسيا!

شهقت كارمن التي أصبحت شفتاها خاليتين من الدم:

ـ من؟

ـ أرغون. . سمعتني. كان يسأل عنك. . قال إنه ما زال يحبك

أخذت كارمن التي بدت الصدمة ظاهرة عليها، تلتفت حولها وكأنها تتوقع أن يظهر لها في أية لحظة:

ـ أين هو؟

سرعان ما تلاشت ثقتها الباردة بنفسها، لكن موريا لم تشعر بالأسى عليها. فأكملت:

ـ لاأدري أين هو الآن. لكنه قابلني على الشاطىء في اليوم الذي زرت فيه أبي

ـ وهل شاهده أبوك؟

ـ لا.

ارتفع صوتها بهستيريا:

ـ حسناً. . لا أريد رؤيته ثانية. كان يحبك أنت، لا أنا. وإن حاول أن يوهم الناس بالعكس فسأنكر أي إنكار. لا أريد سماع اسم أرغون غارسيا مرة ثانية. . عندما تتحررين من مادوك اذهبي إليه فلا يهمني ما ستفعلان!

انهارت كارمن انهياراً حاداً وأجهشت بالبكاء ناحية. في هذا الوقت دخل مادوك الذي سارع إلى تهدئة شقيقته ومواساتها قائلاً بغضب

ـ اذهبي إلى غرفتك موريا!

نظرت إليه موريا بحزن. . فهو كالعادة يلومها على تكدر

كارمن. كان وجهه مقبراً وعيناه الخضراوان تصرخان بالاتهام فتساءلت بتعاسة ماذا سيحدث لاحقاً. ليس في وجود امرأتين تتخاصمان حوله ما هو مسلٍّ، وهذا يعني أنه يتطلع إلى اليوم الذي يتخلص فيه من كليهما ليتزوج كارينا.

حين جاء إلى الغرفة فيما بعد تمتمت:

ـ أنا آسفة.

خلع قميصه المبلل بالدموع، ورماه متجهاً إلى الغرفة الأخرى وهو يصيح:

ـ لن أتحمل المزيد من هذا. . أحذرك!

التفتت:

ـ ألم أقل لك إنني آسفة؟

لكنها عادت فأوقفت دفاعها العدائي هامسة لأن الغرفة راحت تميد بها.

ـ مادوك!

أمسكها بسرعة حالما رآها تترنح. لكنه لم يكن لطيفاً ولم يحمل أثراً للعطف عندما قال:

ـ إذا كنت تثيرين نفسك وتثيرين الآخرين فماذا تتوقعين؟

ـ لم يكن الأمر هكذا. . . !

كيف لها أن تفسر الشوق إلى ذراعيه؟ فحبها له ليس جسدياً فحسب بل أكثر من ذلك، لذا مجرد قربها منه يدفعها إلى الارتجاف. لم يتركها على الفور، بل تردد، وعيناه على رأسها المحني. كانت تحس بنظرته تكاد تمزقها، وكأنه يفتش عن شيء. . فقالت بخشونة:

ـ مادوك. . أتريد الطلاق؟

قالت كارمن إنه يريد الطلاق. . فهل ينتظر أن تقوم بالمبادرة

طبيعي، وهذا يعني أنها بدأت تسترد عافيتها، ولكنها رفضت رؤية مادوك قبل عودتها إلى المنزل. وكانت شاكرة له لأنه لم يصرّ، مع إنه كان يتصل عدة مرات يومياً ليطمئن عنها، وعندما سألها غاريت عن سبب رفضها المتكرر هذا أجابت أن لها أسباباً خاصة تمنعها من مقابلته وأنها لا تستطيع كشفها له. لكن عندما تركت المستشفى وظلّ مادوك مبتعداً قلقت..

عادت إلى المنزل بصحة كاملة، لكنها راحت تتشحب، فقلق غاريت قائلاً:

- لماذا لا تتصلين بمادوك؟ أنت لم ترديّ بالفعل على رسالته، مع إنني بلّغته ما قلته لي. وربما ينتظر منك الاتصال به.

- أو وربما غيّر رأيه. وربما اكتشف أنه لم يعد يحبني!

- ألا يستحق اكتشاف حقيقة الوضع محاولة الاتصال به؟

تنهدت:

- لا أعلم يا أبي.. حين ينقل أحد ما إلى المستشفى يتصرف الناس بطريقة انفعالية، لهذا رفضت رؤيته.. أردت أن يكون واثقاً.. ولم أشأ أن يشعر أنه ملزم بشيء قاله مندفعاً بسبب أسفه عليّ.

مرّ أسبوع كامل قبل مجيء مادوك، وكانت حتى هذا الوقت قد توقفت عن توقع مجيئه، فعادت إلى كآبتها وحزنها. في ذاك المساء بالذات، تمشت على الشاطىء، ثم جلست في موقعها المفضل تنظر إلى البحر. فجأة شعرت به، فأدارت رأسها، ثم اتسعت عيناها ارتباكاً.

تبادلا النظرات بصمت. بان مادوك مختلفاً، فعلى وجهه تعب متغضن وفي عينيه ألم عميق، أما وزنه فنقص.

حين جلس إلى جانبها بدا ألمه متصلاً بألمها.

اختنقت ودفنت وجهها بين يديها:

- آه.. مادوك! أين كنت؟

انتزع آمالها بلطف عن وجنتيها، ثم لم تشعر إلا بأنها بين ذراعيه يضمّها بقدر ما يجرؤ خشية أن لا يؤلمها، تأوه:

- حبيبتي.. لو تعلمين ما احتجت من قوة إرادة لأبتعد عنك!

- لِمَ انتظرت طويلاً إذن؟

تمتم بخشونة:

- كدت أمتنع عن المجيء لأنني لم أجرؤ على ذلك بعدما أخبرتني به كارمن وبعدما اعترف به غارسيا فيما بعد

تسمّرت مورينا، ثم رفعت وجهها لتنظر إليه وقد زال الورد عن وجنتيها.

- كان هذا ما يجب أن أعرفه بنفسي. حين أفكر في ما أنزلته بك من ألم أحسّ بالازدراء.

همست بخوف:

- ماذا قالا لك؟

- كل شيء!

- كل شيء؟

هز رأسه بوجوم:

- أجل.. بعد رحيلك تصرفت كارمن بغرابة وتوقفت عن التخطيط لعرسها. مع أنني طلبت منها أن تفعل. ليلة اتصل غاريت قائلاً إنك في المستشفى تجرين عملية جراحية لاستئصال الزائدة الدودية وإن هناك تعقيدات جرت، لم أوقظها من نومها وهرعت إلى المستشفى.. ولكن عندما عدت إلى المنزل، بعد رفضك مقابلتي بدوت قطيعاً. فانهارت كلياً وأخبرتني ما فعلت.

لم تحس مورينا إلا بالدهشة فسألت بصوت مرتفع:

لئلا يشعر بالذنب؟ رفعت نظرها إليه وكررت:

- أتريد الطلاق؟

تنهد، لكنه لم يرد عليها مباشرة... بل قال:

- هذا ما أراه أحياناً الحل الأمثل.

أرادت أن تمنعه بجنون. أرادت أن تتعلق به بقوة، لئلا يستطيع الخلاص منها. لكنها تعرف أن كل تلك الوسائل غير مجدية للإمساك برجل مثله فسرعان ما ستفشل وسرعان ما ستضطر إلى تركه.

فجأة، ودون مقدمات جذبها إليه مقبّلاً إياها. لم تكن مستعدة لهذا بسبب الغضب الذي ما زالت تشعر به، فحاولت المقاومة، لكن جوعها إليه احترق قدرتها على السيطرة التي حاولت الاستنجاد بها، وأخذ جسدها الضعيف ينتفض ويسارع إلى التجاوب المنشوب الذي لا تستطيع كبحه. كانت قوة رغبتهما المشتركة ترسل لهيباً حاراً على بشرتها. حين أبعدها فجأة عنه متمتماً تاركاً الغرفة كالبرق، صرخت وكأن قلبها كاد ينحطم.. أهذه طريقته في معاقبتها قبل أن يتركها ليذهب إلى كارينا؟

كان ذهابها لمقابلة أرغون أسهل مما ظنّت. فلقد ذهب مادوك إلى «مايا جونز» قائلاً للسيدة بونيس إنه لا يتوقع العودة قبل المساء. وبما أنه لم يكلمها منذ ظهر اليوم السابق، لم تظن أنه سيهتم بما ستعمل.

بعد الغداء، تسللت خارجة. كان أرغون ينتظرها حيث وعد أن يكون. كان متوقفاً قرب سيارته على حافة الطريق، فيما كانت تقترب لاحظت قسماً من الأسبانية السمراء، ولاحظت أنه أوسم من موري روسيل. لكن لا بد أن كارمن قد أدركت مع الوقت أن موري أفضل منه. قالت له وهي مقطوعة الأنفاس بسبب السرعة:

- أيجب أن نقف هنا هكذا؟ قد يراك أي شخص.

بقي على حاله، عيناه مثبتتان على وجهها المتضرج:

- لست مجرماً.. حسناً؟

شوقه المثير للإشفاق لم يجعل الرد عليه سهلاً. إذا كان يحب كارمن حقاً بقدر ما يقول، فموريتا بالتأكيد تشفق عليه.. قالت متوسلة بلهفة:

- ألا يمكن أن نجلس داخل السيارة أولاً؟

قال بنفاذ صبر:

- كما تشائين.

داخل السيارة أوضح أنه لن يتنازل وقال:

- هيا الآن.. أخبريني! أشك من تعابير وجهك أن تكون الأخبار جيدة.. لكنني لن أنتظر لحظة أخرى.

أحست موريتا على الرغم من قسوة صوته بالإشفاق عليه.

- كارمن عادت إلى المنزل مخطوبة.. وهي آسفة، لكنها لا تريد رؤيتك ثانية.. أظنها تشعر أن لا فائدة من اللقاء.

صمت أرغون بضع لحظات ثم سألها بقسوة:

- ومن هو الرجل الآخر؟

- موري روسيل.. رجل يعمل في حقل التجارة في سان خوان. أتعرفه؟

هزّ رأسه:

- وهل تحبه؟

- هذا ما تقوله.

- لا أصدق.

نظرت إليه متوترة:

- أنا آسفة، لكن صدقت أم لا سيد غارسيا، أن تستطيع فعل

شيء إزاء الأمر.

ـ لا شيء؟

لم تكن تريد أن يخيفها صوته.

ـ لا.. لو كنت مكانك لنسيت أمرها.

أشاحت مورينا بوجهها عنه، كارهة رؤية محنته، لكن سرعان ما اتسعت عيناها حين شاهدت سيارة مادوك تمرّ بهما.. نظر مباشرة إليهما، إنما بطريقة عرضية أبلغتها أن هناك فسحة قصيرة من الوقت قبل أن يتعرف إليهما. أمسكت بقبضة الباب بسرعة:

ـ يجب أن أذهب أرغون.. كان هذا...

ـ لا داعي للقول من هو!

ودفعها من السيارة ليدير المحرك مردفاً:

ـ لا عيب يشوب نظري، وليس لديّ الرغبة في مقابلة السيد لامب!

كاد يوقعها عندما دفعها ولكنه لم يأبه بل انطلق بسرعة، تاركاً إياها وحدها لتواجه زوجها الغاضب. لكن مادوك أدار سيارته بسرعة خاطفة ليلحق به.. وكان قادراً على ذلك لولا اختياره الانقضاض عليها عرضاً عنه.. ما هي إلا لحظة حتى كان إلى جانبها يمسكها بشراسة وأنفاسه مضطربة، وكأنه كان يركض.

ـ إذن هذا ما تفعلينه حين يكون من المفترض بك زيارة غاريت.

كان وجهه شاحباً، قاسياً، نظرته مكتومة، وكأنه يقفل على غضبه داخل عظام فكيه.. تحت بشرته احمرار أدكن. حدقت إليه والخوف الذي كان يشعرها ينعكس في عينيها الواسعتين.. ماذا سيفعل؟

لم تكن مضطرة للانتظار طويلاً حتى تعرف.. فبينما كانت

تراقبه بصمت مذهول، دفعها بلا رحمة إلى سيارته ودخل إلى جانبها.. سيوفر عليها على الأقل عار أن يهزها بعنف على الطريق العام، هذا إن لم يكن يفكر في عمل أكثر إجراماً... سألها وعيناه سوداوان من الغضب:

ـ منذ متى تقابلين غارسيا؟

ـ رأيته مرتين فقط.. لكنني لم أسعَ إليه.

قال بوحشية:

ـ لا تقولي هذا! كنت أعلم أنك تنوين شيئاً. ظننتك توقفت عن الجري وراء الرجال.. وها أراك لا تشبعين!

احمرت حتى جذور شعرها.. أيجب أن يكون قاسياً إلى هذا الحد؟ أحست فجأة بيأس شديد:

ـ مادوك.. أرغون لا يعني لي شيئاً.. يجب أن تصدق!

صاح في وجهها بازدراء:

ـ لماذا إذن كنت معه اليوم؟ لا تقولي إنك قابلته صدفة؟

نظرت إليه وعيناها مشبعتان إحباطاً وألماً.

ـ لا...

ماذا أفعل؟ لن تستطيع شرح أمر كارمن وأرغون دون الاعتراف بكل شيء.. ولو كان هذا ممكناً لصدقها.

ـ منذ أيام.. طلب مني أن أساعده.. وكان عليّ رؤيته مجدداً لأقول له إنني لن أستطيع...

التفت إليها والشرر يقدح من عينيه:

ـ اخرسي مورينا.. ما كان أشدّ حماقتي. لكنني لست مضطراً إلى الاستمرار على هذا النحو. حسبت أن أمام زواجنا فرصة للنجاح ولكن يبدو أنني كنت مخطئاً. اسمعي عودي إلى أبيك أما أنا فسأتصل بالمحامي.

كأنها تلقّت ضربة قاضية شعرت معها بأنها تكاد تغيب عن الوعي. كان دمها قد جفّ كله ومع ذلك تمتمت بغباء:

- محاميك؟

- لا ترتبكي هكذا. سأمنحك الطلاق وعندها تكونّ لك حريتك التي تخولك إقامة علاقة مع غارسيا.

أمسكت ذراعه بهستيريا:

- لا.. مادوك!

لكنه دفعها عنه، غير مهتم بعذابها الظاهر.

- لا داعي للقلق موريتا.. قد تمّ الاتفاق حول الأرض. روقساه، ووثقنا. لذا لن يؤثر الطلاق في أبيك الذي سيؤول إليك إيراده بعد وفاته، إنما لا أعد أن أبقيك في المنزل.

فشلت في استيعاب ما يقول.. لم تكن لتصدق أنه ينوي فعلاً الخلاص منها.. لقد حذّرتها كارمن، وكان يجب أن تهيء نفسها، لكنها لم تستطع، فالصدمة شديدة الوقع عليها. سمعت صوته يأمرها بتجهم أن ابتعدي عن المزرعة، ويحذرها من إثارة المتاعب.. وبدأت أذنيها بالطنين. ولم تعد تسمع نصف ما يقول.

كانت الدموع تتدحرج بغزارة على وجنتيها قبل أن يدرك أنها لا تفهمه، فصاح بها ببرود:

- لا جدوى من الكلام! سيجري أي كلام بيننا عبر المحامي.

همست:

- مادوك.. أحبك.

ضرب يديه على المقود وشدّهما فوقه حتى ابيضت عقد أصابعه

- بالله عليك موريتا! تعلمين كما أعلم أن هذا لا يعني لي شيئاً!

ارتجفت وهي تشعر ببرد شديد يغلّفها، فقد خسرت. سألته:

- متى تريد أن أرحل؟

- سأصطحبك فوراً إلى منزل والدك، وسأرسل لك ثيابك فيما بعد.

ردت مع شيء من الكبرياء، مع أن صوتها كان يرتجف:

- لن يكون هذا ضرورياً مادوك.. ! احتفظ بها.

رد بعنف وهو يدير السيارة بحدة:

- لا تكوني حمقاء غبية! أتظنين أنني بحاجة إلى ما يذكرني بزوجة أفضل أن أنساها؟

أحست موريتا بالمرض عدة أيام حتى تعافت أخيراً، ولو بألم. ولولا غاريت، لما عاشت. حاولت من أجله وعرفاناً بجميله أن تضع الماضي خلفها. لكن ليس سهلاً عليها الادعاء أنها بدأت تنظر إلى المستقبل بدلاً من الماضي. كانت تشكّ في أنها خدعت غاريت، مع أنه توقف عن الانفعال كثيراً حين ترفض الطعام، كما أحجم عن السؤال عما تشعر به. قالت له إن زواجها لم ينجح، وإن مادوك وجد امرأة أخرى. في البداية غضب حتى تمكنت من إقناعه أنه إنما تزوجها أساساً بسبب الأرض وبسبب كارمن

- كانت الأرض مهمة له فاعتقد أن بزواجه بي يدفع الأمان إلى قلبك فتوافق، كما أراد من يعتمد عليه لمرافقة كارمن

لم يجادلها غاريت، مع إنه أبدى رغبته في مواجهة مادوك لكنها لم تتركه يواجهه. وراحت تدعو ربها ليتقبل ما قالته له فلا يعمد إلى كشف ما لم تبحْ به.

حاولت من جديد التقاط خيوط حياتها القديمة من حيث تركتها قبل الزواج. لكن حماسها لما كانت به زال. فقد فقد كل شيء حتى الصخور المرجانية السحر القديم، وعلى الرغم من ذلك أمضت ساعات طويلة تجلس على الرمال، تحدق إلى البحر. لم يحاول

مادوك الاتصال بها ولو عبر محاميه.

ثم وفي مساء أحد الأيام تحوّل عذابها إلى ألم كبير. كانت قد أمضت نهارها في ترتيب غرفة الجلوس تطليها بطلاء جديد ولما حدث لها ذلك الألم ألقى غاريت اللوم على عملها الذي قامت به، ثم أعطاها الأسبرين، وشراب ساخن. لكن، في منتصف الليل، حين بلغ ألمها حدّه الأقصى استولى عليه الخوف فحملها إلى المستشفى.. اضطرّ إلى الاتصال بسيارة أجرة، ولم يكن من السهل الحصول عليها في مثل هذه الساعة. وعندما أوصلها إلى المستشفى كاد يفوت الوقت كثيراً.

نجحت العملية الجراحية، لكن حدثت بعض التعقيدات التي أبقتها مريضة أكثر من الأول. وحين استردت بعض عافيتها قيل لها إن زوجها ينتظر ليراها.. لكنها أصيبت بنوبة هستيريا ورفضت رؤيته «و وطلبت رؤية والدها فقط.

كان غاريت متأثراً بما حدث فعجز عن الكلام، واستعاض عنه بإمساكه يدها وبالنظر إليها بقلق ثم قال:

ـ كان عليّ أن أخبره.. فما زال زوجك.. لقد قلق كثيراً.

ـ لا أريد رؤيته.

ابتلع ريقه بصعوبة، فقد حرّك منظر وجه ابنته الأبيض الشاحب على الوسائد عاطفته بعمق.

ـ كان كلانا قلق حبيبتي.. مرّ بنا يومان رهيبان أطلنا فيهما الدعاء لك.

نظرت إليه بعينين جافتين ووجنتين محترقتين:

ـ آسفة يا أبي.

ابتلع ريقه ثانية:

ـ قال الأطباء خمس دقائق فقط لنا يستحسن أن أعطيك هذه،

طلبوا من مادوك أن يعود في الغد، فكاد يقتحم المكان على الرغم من كل شيء، لكنه عاد فاختار أن يكتب لك هذه الرسالة.

نظرت إلى الرسالة في يده بلا اهتمام أو اكتراث:

ـ لا أستطيع رؤيتها يا أبي.

تنحنح غاريت محاولاً الخلاص مما علق في حلقه.

ـ أمسكها لك.

قبلت لترضيه، مع ذلك تحرك شيء ما في داخلها. وللمرة الأولى منذ أيام تحسّ بأن الحياة تجري في جسدها. أمسك لها الرسالة لكنه لم ينظر إليها، فقرأت:

«مورينا.. أحبك.. أريدك أن تعرفي هذا مثنياً لو يجعلك اعتراني تستمرين في القراءة. حين أخبرني غاريت عما أصابك أدركت أنك الشيء الوحيد المهم عندي. فلا تستحق الحياة بدونك العيش فيها. لا يهمني ما فعلته.. كل ما أعرفه إنني لم أعد قادراً على التصديق أنك ترتكبين ما هو خاطىء، وأراني مخطئاً في شكي فيك. رجاءً اغفري لي واتلني لي برؤيتك لأطلب منك الغفران بنفسي.

مادوك»

استلقت مورينا دون حراك، ثم تطلعت وعيناها تتراقصان:

ـ أوه يا أبي...

كان غاريت على وشك استدعاء الطبيب بسبب جمودها، ثم عاد فغيّر رأيه عندما شاهدها من خلال دموعها:

ـ قل له سأراه بعد أيام.

وغابت في نوم عميق...

قالت الممرضات لغاريت إنه اليوم الأول الذي تنام فيه بشكل

- ولم تفعل هذا؟

هزّ كتفيه متعباً:

- ما لم تفعله لي، انتزعته منها. فعادت في روايتها إلى الزيارة الأولى التي قامت بها، حيثُ كنت في الثامنة عشرة وذلك قبل حادثة ما اعتقدته إبعاداً يومذاك. أتذكرين؟ حادثة الغرق؟

تحمّس للإيجاب فتابع

- لأني كنت مسعولاً في بريطانيا أرادت السفر وحدها. حاولت منذ وفاة والدينا أن أرعاها وأراقبها. لكنها كانت في الثامنة والعشرين، لذا حين أصرّت على السفر وحدها أذعنت.. أعرف الآن أن غارسيا هو ما اجتذبها. أما في ذاك الوقت فكنت جاهلاً السبب.

سألته ببطء:

- ولماذا لم يعجبك؟

- لم أكن راضياً أصلاً عن عمله.. حمّلته مسؤولية المزرعة ولكني لاحظت أشياء غريبة وهذا ما كانت تعرفه كارمن. لكن لم يكن بيني وبينه عداوة حتى رأيته ينظر إليك.

- لم يكن مهتماً بي.

ردّ بوحشية:

- هذا ما أعرفه في الحاضر مع أني غير واثق من أنه لم يُبدِ اهتماماً.

شهقت موريتا من الغضب البارز في كلماته وسألت:

- ماذا قالت كارمن بالضبط؟ إنما لا تذكر التفاصيل!

- لا داعي إلى التفاصيل ما دمت تعرفينها. قالت لي إنها كانت تعتقد أن كراهيتي لغارسيا أكبر مما هي بالفعل وأنها تعمدت صداقتك ودعتك إلى المزرعة لأصدق، إذا حدثت متاعب، أن غارسيا يهتم بك لا بها. فكان أن جمعتكما في بعض المرات على

أمل أن تخدعني. أتذكرين أنني غضبت حين ذكرتِ لي قصة اختفاء مركبك؟ يومذاك قلتِ إنها أنقذتك من الصخور؟ حسناً.. يبدو أنها من قطعت الحبل ليختلّ توازن مركبك.. فقد شاهدتك تذهبين إلى هناك، وعلمتِ أن الفرصة مؤاتية لتوقعك في دين لها

- هذا ما لم أكن أعرفه.

- وهذا ليس كل شيء.. حين اكتشفت أننا نخرج معاً، لم يعجبها الأمر، وذلك بسبب الغيرة إنما لا تسأليني لماذا، فأنا لم أكن يوماً قريباً منها. أعتقد أنها جاءت إلى هنا لتحدثك عن أشياء سخيفة تتعلق بكارينا روسيل وبفتاة أخرى في لندن. نعم لا أنكر أنني كنت أقيم علاقات عديدة قبل أن ألتقي بك، ولكن لم تكن كارينا أو تينا ممن أقمت معهن علاقة.. فأنا لم أحب من قبل، ولم أطلب من أية فتاة الزواج.. آه ليتني كنت موجوداً عندما أنت تطلب رؤيتك.

مررت يد محبة على خده.. حين تمتم أنه يحبها تفرّت نبضاتها وأدركت أنه يمتع نفسه بالقوة من معانقتها. همست:

- جئتُ التلال يائسة ذلك اليوم لأنني كنت أشعر بالبؤس يكتنفني بسبب ما أخبرتنيه كارمن. يومذاك كدت لا أعرف أين أتوجه لذلك جلست أراقب الطريق لأتجنبك حين تصل، فكان أن شاهدت أرغون وكارمن، وشاهدتك أنت أيضاً فذعرت وتذكرت أنني مدينة لها فتوجهت إليها أحذرها،

- فدفعتك إلى داخل السيارة.. حين أخبرتني الحقيقة المتعلقة بشأن الحادثة كدت أقتلها! لم تدرك يومها أنها لا تحبه إلا بعد أن هربت منه، فاستخدمت الحادثة واستغلت الفرصة التي أرسلها الله إليها... للتخلص منه.. حين وصلت بدا لها أن القدر يلعب لمصلحتها فورطتك. وبهذا لم تتمكن من الخلاص منك فقط.. بل أوحت لي أيضاً بأنك غير بريئة.. لكن.. لماذا لم تخبريني

الحقيقة؟

ارتجف صوتها:

- وهل كنت ستصدقني؟ كنت قد وقعت في المصيدة!

تمتم:

- هل تسامحينني؟

ترقرقت عيناها بدموع الحب:

- ما أسهل ذلك!

.. لا أستحق مسامحتك.

المقاومة التي كان يفرضها على نفسه تلاشت، فضمّها إليه بشدة. فتعانقا عناقاً عاصفاً فيه شوق وجوع..

- وجدت غارسيا.. فاعترف بما هو مهم إضافة إلى أشياء أخرى.

تنهدت مورينا:

- ما زال يحب كارمن فقد طلب مني مكالمتها وهدد بالمجيء إلى المزرعة فحرت بما أفعل. لكن حين أخبرتها رفضت أن تقابله أما عندما رأيتني معه فكنت أنصحه بالابتعاد عنها ونسيانها.

قال مادوك بفظاظة جعلتها تحسُّ بالبرد.

- أخشى أنني غير مهتم بما فعله كلاهما.. لقد سافرت كارمن إلى إنكلترا للإقامة مع أنجيس، على أن تتزوج هناك. لكنني أخبرتها أنا لن نحضر عرسها.

- أوه.. لكن.. إذا كانت آسفة.. ؟

- مورينا! لا تقولي لي إنك قادرة على مسامحتها بعدما فعلته بك!

ردت بلطف ورقة:

- في النهاية ستنسى.. فالحياة أقصر من أن نحمل في قلوبنا ضغينة.

- غلظ صوته:

- لا أعدك بشيء لأني لا أتصورني أسامحها.

- أحبك وأسامحك على سوء ظنك بي ولعلك كنت على حق في ذلك فالدلائل جميعها كانت ضدي.. لكنك قلت في رسالتك، قبل أن تبوح كارمن بالحقيقة.. إنك تؤمن بي.

- حين ضبطتك منذ سنتين في السيارة مع غارسيا كنت أحبك حباً جماً فأعماني الغضب. أتعلمين أنني منذ ليلة عيد مولدك عجزت إلا عن التفكير فيك.. لكنني كنت مؤمناً أنك أصغر من أن تعرفي ما تريدين. فكان حين ضبطتك مع غارسيا أن ثبت لي صحة نظريتي، والدور الذي لعبته في حادثة كارمن أكّد لي هذا الرأي.

- كنت أحبك يومها.

تأوه، ودفن وجهه في عنقها:

- حبيبتي.. وأنا أحبك كثيراً.. أمضيت وقتاً طويلاً محترقاً بأتون الغيرة! حاولت البقاء في إنكلترا... لكن كان عليَّ العودة. كنت يائساً إلى رؤيتك يأس من انقطع عنه الماء في الصحراء... حين رأيتك تراقصين رجالاً آخرين، عرفت أنني لم أكن أتخيل قوة مشاعري نحوك. لكنني كنت متكبراً على أن أتنازل. أردتك، لكنني اضطررت إلى استخدام الأرض ذريعة للوصول إليك. كان شهر عسلنا عذاباً لي وسعادة لأني كنت فيه أحاول التظاهر بأنني لا أحبك

تذكرت وتنهدت:

- كنت بارداً جداً.

- أما هذا أما التطرف الآخر. لم أرغب في أن أخيفك. ولو عرفت أنك تحبينني لاختلفت الأمور! لقد عذبتني أكثر مما يجب أيتها الساحرة اللعينة الصغيرة!

- كيف يمكن لي أن أصدق أنك مغرم بي وأنت تنادني بهذه الصفات؟

ردّ بحشونة:

- سأقضي ما تبقى من عمري أقنعك.

قفز قلبها حين تسللت يده إلى ظهرها يشدها إليه بقوة، عندما أحست بقوة عضلاته، فارتفعت ذراعاها لا إرادياً إلى صدره العريض ومنه راحتا تشقان طريقهما إلى عنقه.

المشاعر التي غلفتها كانت مدمرة.. أشياء لا حدود أو قياس لها، كانت تدفعها.. حين رفع رأسه لينظر إلى وجهها فضحت حياء شوق نفسه، وسألها:

- كيف هي صحتك بالضبط يا حبيبتي؟

تحركت على مضض وهو ينتظر ردها:

- لست واثقة من صحتي، لكنني واثقة من مشاعري.

- يا حبيبتي!

اشتدت ذراعاه حول قدّها الرشيق حتى ظلته نسي مرضها وعمليتها الجراحية.. الشاطىء مهجور، ورجل وزوجته في عزلة تامة. لكن حين تنهد مادوك ووقف يرفعها والندم ظاهر عليه أحست بالحرمان. فابتسم بوقار وهو يفهم سبب مقاومتها المكرهة:

- أرى أنني مضطر إلى أن أكون قوياً لمصلحتنا معاً. لكن إذا اضطررت إلى كبح رغباتي أياماً أخرى يا زوجتي الراغبة، فعلى الأقل كوني معي. فراشي مهجور منذ تركتني والمشكلة أنني لم أعد أذوق طعم النوم. ترى هل سيسامحني غاريت إن اصطحبتك إلى منزلنا؟

قاومت لتخرج من سحابة الأحاسيس التي غلفتها.. واندست فيه تطلق تنهيدة قناعة. قالت ببساطة:

- أظن هذا أكثر ما يريد.

استدار مادوك ليحملها فوق الشاطىء بخطوات سهلة. فأحست أن آخر أحلامها قد بدأ يتحقق!